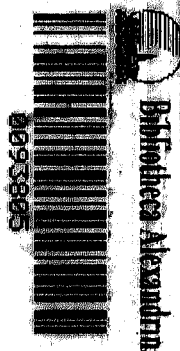


محمود السعدني

مهر من تاج



Bibliotheca Alexandrina

طوبى.. وطوبى

● ● من المأسى ما يمتد فى بطن التاريخ عدة مئات من السنين . ولكن أخطر مأساة فى التاريخ . ان كل خليفة حى هو مصدر الحكمة وينبوع المعرفة ونموذج الكمال . وهو يظل كذلك حتى يموت . فإذا مات ، فهو منبع الجهل ومصدر الظلم والنموذج الأكبر للفساد والاستبداد . مأساة حقيقية ، ولكن سببها الخليفة نفسه . لأن نمط الحكم العربى يجعل من الخليفة أو الوالى أو السلطان الملك المعصوم ، فلا يسمح لأحد بانتقاده وهو حى يرزق . مسموح للجميع بأن يبالغوا فى مدحه وفى حصر مآثره . وفى تسليط الضوء على مواهبه ، والاعتراف بعبقريته ، وتدور الاسطوانة على هذا الوجه مادام الخليفة حيا ، فإذا مات الخليفة ، قلبوا الاسطوانة على الوجه الآخر . وهى دائما عكس الوجه الأول ، وبينهما مسافة لاتقل بعدا عن المسافة بين الأرض والمريخ ! ولذلك فكرنا وشه الحمد - ان نلقى نظرة على تاريخ مصر من تانى . نظرة رجل من الشارع غير متخصص وغير كمسارى وعلى غير علاقة رسمية بالتاريخ . وسنعيد النظر من جديد وفى هدوء على التاريخ كله ، بعد ان مات الخلفاء والسلطين والأمراء والكمسارية والبصاصون . وسنحاول أن نجرد التاريخ من السلطة ومن أبهة الحكم ومن أجهزة المباحث والمخابرات . وهو على كل حال اجتهدا من جانبنا ، ان اصبنا كان لنا اجر المجتهدين ، وان اخطأنا كان لنا اجر المجتهدين المخطئين . وسيكون الفرق بيننا وبين المؤرخين الكمسارية ، أن مصر فى نظر المحترفين هى سلسلة طويلة من الأمراء والملوك والسلطين ، ولكنها فى نظر العبد لله مجموعة متصلة من الأجيال والصياغ واصحاب الحاجات والمتشردين . مصر فى زمن السلطين لم تكن قلاوون أو قطز أو عز الدين أيبك التركمانى أو على بك الكبير . ولكنها كانت الزعر والحرافيش والحشاشين . ومصر أيام عبدالناصر لم تكن هى الرئيس ونوابه ، ومدير المخابرات واجهزة الاتحاد الاشتراكى . ولكنها كانت العمال والفلاحين والراسمالية الوطنية والجنود والمتقنين . ومصر فى عهد السادات لم تكن هى الرئيس أو زعماء المنابر ، أو تجار الشنطة واصحاب بوتيكات شارع

الشواري واصحاب الكباريهات ورواد الحانات . ولكنها كانت ايضا هي ملايين الشحاتين والمتسولين والذين يعانون المرض وخيبة الأمل والجوع . انه تاريخ الشعب المصرى فى الواقع وفى الحقيقة وعلى المكشوف وعلى عينك يا تاجر . ونرجو الا يغضب منا احد ، فنحن لانقصد الا وجه الحقيقة . ولانهدف الا تعرية الواقع ، ولانرجو الا عفو الجبار . فالتاريخ ليس أكثر من أخبار قديمة ، ولكنها قد تتطابق أحيانا مع ما يجرى اليوم من أحداث ، أو قد تكون هى السبب فيما يدور اليوم من أمور . وهذا هو الفرق الوحيد - ربما - بين الحيوان والإنسان ، فالإنسان - على رأى أحمد بهاء الدين - حيوان له تاريخ ؛ ولكى يكون الإنسان إنسانا بحق ، فينبغى ان يعرف تاريخه بـلاتزويق ولا رتوش ؛ ولعل ذلك هو السبب الذى جعل منا نحن العرب أقل مرتبة من بعض الناس ، فالانجليز مثلا يعرفون تاريخهم بالضبط ، ويعرفون خباياه بالتحديد . ولكن تاريخ العرب فى مجمله يقف عند خبر ان كل السلاطين فى غاية العدل ، وكل الإمراء فى غاية الأدب ، وكل الحكام على حق وكل الشعب فى منتهى الوقاحة والإجرام ؛ وعلى آية حال ، سنبدأ على بركة الله . وارجو ان ننتهى على بركة الله ايضا . ونسال المولى العزيز التوفيق للوصول الى الحقيقة للكشف عن المستور وان نكون عند حسن الظن وعلى مستوى العمل الكبير . ونطلب من الله ان يبعدنا عن أيدي العسس ، وان يخفيانا عن أعين البصاصين ، وان يحيينا صياعا ويميتنا صياعا ، ويحشرنا يوم القيامة فى زمرة الذين هم على باب الكريم .

طوبى للصياع . وطوبى للمتشردين و .. طوبة للبصاصين
والمخبرين ! ● ●

محمود السعدنى

الفسطاط .. لماذا ؟

تاريخ العالم هو تاريخ السلطة ..
لأن التاريخ - مع الأسف الشديد -
لا يهتم بالشعوب . ولا يحترم الضعفاء
ولا يتعقب المغمورين ! ولهذا السبب
ايضا . فالتاريخ اكثر مزيف ومزور
واغلبه اكاذيب . لأن الذى يكتب التاريخ
هو السلطة .. ولذلك . ستجد أعداء السلطة دائما على خطأ . والحق دائما
في جانب السلطان ! والويل دائما للمهزوم لأن التاريخ من اتباع المنتصر
وهو من حشم السلطان . وفرد من طاقم خدم الوالى .
عندما انهزم عبدالله بن الزبير نعتوه باحط النعوت . ووصفوه باحقر
الأوصاف . عندما قتل الحاكم بامراة . رموه بالجنون . اشاعوا عنه انه
حال بين النساء وبين ارتداء الكعب العالى . وانه حرم اكل الملوخية . وانه
امر الناس بالعمل ليلا والنوم نهارا ! مع انه كان واحدا من اعظم حكام
مصر . وخادما من خدام الحقيقة . وفارسا من فرسان الفكر ودرويشا من
دراويش الحياة ! وعندما هرب نابليون من منفاه في جزيرة البا . كانت
مانشيتات صحف باريس خلال أربعة ايام متتالية على النحو التالى : هروب
المجرم . الخائن يصل الى الشاطئ . المخرب يزحف نحو باريس . البطل في
باريس ! وهتلر يعرفه العالم الآن على انه الرجل الوحش . مصاص الدم .
اكل لحوم البشر . احقر من ولدته امرأة . عدو البشرية رقم واحد ! ترى
كيف ستكون صورته لو انه هو الذى انتصر ! غلب الظن انه كان
سيصبح محرر الشعوب وحامى حنى الاسلام ! وبالقطع كان الجنون
سيكون من نصيب تشرشل .. والخرق هو طابع ديڭول . والخيانة هي
حرفة روزفلت ! احيانا . ينصف التاريخ بعض المهزومين . من هؤلاء مثلا
عمنا المارشال رومل . صحيح انه انهزم . ولكنه ظل حتى الآن اشهر قائد
انجبتة الحرب العالمية الأخيرة ! وعبد الناصر لم ينهزم . ولم يفقد السلطة
وهو حي . ولكنه فقط توفي الى رحمة الله . ولكن لانه مات فقد لعنوا
سنسفيل اجداده والصقوا به كل تهمة . ورمود بكل نقيصة . مع اننا
جميعا . الذين نسلم الشتائم ونقرأ سيل الاتهامات . كنا احياء نرزق

ونصفق لأمجاد عبدالناصر وانتصاراته وشموخته العظيم : وماساة عبدالناصر ليست هي المثال الوحيد على استنزاق كتبة التاريخ . فقد تكررت كثيرا في تاريخ مصر الحديث والقديم ، وتكررت كثيرا في تاريخ الامبراطوريات العربية . سواء في القاهرة او في دمشق . عندما قتل محمد بك أبوالذهب سيده على بك الكبير . الغى كل القوانين التي سنها سلفه . ورد الاموال والاملاك المصادرة الى اصحابها . عفا عن المنفيين خارج مصر . وسب سيده واتهمه بكل رذيلة . مع ان التاريخ الحقيقي يقول لو ان على بك الكبير استمر في السلطة لتغير تاريخ مصر . لان على بك الكبير هو اول من حاول بناء الدولة المصرية في العصر الحديث . وفي سبيل ذلك شرع في اتخاذ اجراءات اجتماعية حاسمة . فأمم الارض الزراعية وصادر الثروات التي تراكمت نتيجة احتكار السلع والاتجار في السوق السوداء وأسس جيشا وطنيا . واقام أول مصانع للسلاح . وشهدت مصر في عهده حالة من الاستقرار والرخاء . دفعتة الى التفكير في غزو تركيا نفسها وهدم الخلافة الاسلامية ونقلها الى القاهرة . ولكن المؤامرة قطعت الطريق على على بك الكبير . وكان نائبه وساعده وقائد جيشه محمد بك أبوالذهب هو الذي تولى القيام باهم دور في المؤامرة . ولذلك تاخر نهوض مصر فترة من الزمن . حتى جاء محمد على باشا الكبير . فسار على درب على بك الكبير . واستطاع - رغم كل شيء - تاسيس الدولة المصرية الحديثة . وعندما احتدمت المعركة بين الجيش المصري وجيش ابن عثمان في معركة مرج دابق وانهزم سلطان مصر قنصود الغورى . وصارت مصر نيابة سلطنة . ودخلت تحت حكم السلطان ابن عثمان . تولى خاير بك منصب نائب السلطان العثماني . وكان يشغل نفس المنصب في أيام سلطان مصر قنصود الغورى . وذلك سماد العامة خاين بك بينما اطلق عليه كتبة التاريخ وصف منقذ مصر . ووصفوه بالحكمة والحصافة ورجاحة العقل . ويقول عمنا ابن ياسر (وبعد ان تحققت هزيمة السلطان قنصود الغورى وضاع ملكه . التفت الحاشية القديمة حول السلطان ابن عثمان . يقدحون في سيدهم السابق ويقبحون اعماله ويسفهنون اراءه . والصقوا به كل دنبة ورمود بكل نقصر . مع ان لحوم اكتافهم كانت من خيره . والخير الذي كانوا يرفلون فيه من فضل نعمته) . وعندما مات الخليفة الاموى في دمشق ابلى الحاحب ولى العهد الوليد بن عبد الملك بنب موت الخليفة وكان يعيش منفيا في إحدى القرى الواقعة بين العراق والشام فامر ولى العهد بان توضع كل متعلقات دار الخلافة في حرز حريز حتى يعود الى دمشق من

منفاد ولكن الخليفة المتوفى استيقظ فجأة في المساء وتبين انه كان في اغماء طويلة . وبعد ان تامل في فراشه وتلفت حوله طلب شربة ماء . فجاءه الخادم بشربة الماء في كوز من الصفيح . وكان للخليفة طاسة من الذهب الخالص يشرب فيها الماء . فطلب الطاسة الذهب ليشرب فيها . ولكن الخادم اعتذر له لان الخليفة الجديد امر بتحريم الطاسة مع متعلقات الخليفة . وامر بعدم استعمال أى شىء منها . فلما سمع الخليفة القديم ما قاله الخادم شهق شهقة طويلة وفارق الحياة . وقيل ان يتمكن من ان يشرب شربة الماء ! انه تاريخ طويل ولا اعتقد ان احدا لديه صورة دقيقة عن احوال مصر لحظة دخول عمرو بن العاص . وليس بين أيدينا الا وصف لمعارك ، وأخبار لبطولات ! ولكن الشىء الأكيد ان فتح مصر خلصها من قبضة حكم روماني متجبر ولا يرحم . ولا ندرى ما الأسباب التي جعلت عمنا عمرو بن العاص يختار هذا الجزء على ضفة النيل في مواجهة الجزيرة لاقامة عاصمة الدولة الجديدة ، وقيل في تبرير هذا الاختيار انه اختار مكانا يتوسط الوادى . وقيل ايضا انه تفاعل عندما باضت الحمامة على خيمة القائد فأمر بأن تقام العاصمة في المكان نفسه ! ولكن الحقيقة ان عمرو بن العاص اختار المكان الأفضل لقيام عاصمة . وهو في الواقع لم يكن اختيارا ولكنه كان فرضا . ففي مواجهة المكان الذي اختاره . وعلى شاطئ النيل في بر الجزيرة ، قامت أزهر وأشهر عاصمة مصر في العهد القديم . منف ! كما انه على بعد مرمى حجر من المكان الذى حدده عمرو كانت تقوم عاصمة الأقباط المصريين حول قصر الشمع . واذا كان الرومان قد اختاروا الاسكندرية عاصمة لمصر فإن ذلك الاختيار لم يكن موفقا ، ولم يكن نتيجة لدراسة أو بحث . وانما كان استجابة لنداء عاطفي عند الرومان . فهي مدينة ساحلية وايضا شديدة الشبه ببابولى ، وهم في بلد كهذا لا يشعرون بالغربة ولا يعانون الحر في داخل البلاد ! المهم ان عاصمة عمرو قامت وازدهرت بسرعة ، واختار لها اسم الفسطاط ، وهي كلمة رومانية « فوسيطيوس » ومعناها المعسكر ! وحول جامع عمرو بن العاص نشأت المدينة وترعرعت . وكانت أسواقها عامرة وتجارها نشطة وحركة السياحة فيها على وده .

وشهدت فترة من الزمان كان فيها العدل المطلق هو الدستور ، وعبرة لا إله إلا الله هي الشعار . نعم ، لا إله إلا الله ، فكل الناس عبيده الخليفة والوالى وصاحب الخراج والقاضى والجميع . وكان عمر بن الخطاب . الذى كان العدل دينه يحكم من المدينة المنورة امبراطورية مترامية الأطراف ، وفي عهده شهدت الفسطاط لأول مرة في تاريخها ، ولأول

واخر مرة أيضا ، حادثا عظيما هو جلد ابن الوالى بأمر من الخليفة لأنه جلد واحدا من أبناء الرعية ! وهو حادث لو وقع اليوم لعدده الناس علامة من علامات الآخرة . ونذيرا بنهاية الحياة ! ولكن هذا العصر الذهبى للفسطاط لم يستمر طويلا ، فسرعان ما تبدلت الأحوال وقفر الى السلطة فى امبراطورية الاسلام هؤلاء الذين حاربوا الاسلام بضراوة ، وقتلوه الى آخر لحظة ولم « يؤمنوا الا عندما اصبحوا من الطلقاء ! هكذا تربع على السلطة معاوية ونقل مركز الخلافة من المدينة الى الشام . وعلى الفور شهدت الفسطاط مصرع واليها محمد بن أبى بكر . وقد وضعوه فى بطن حمار وأشعلوا النار فى الحمار وفى الوالى . ثم نثروا رماد الاثني فى الهواء ، ولم يفهم أهل مصر سر التطورات الأخيرة ، خليفة ذهب وخليفة جاء . ولكن بين الذهاب والمجيء حدثت تطورات عميقة واحداث عنيفة . وتقلبات اجتماعية حادة . واعتبروا الأمر كله يخص هؤلاء العرب الوافدين من وراء الصحراء فقد كان أهل مصر حتى تلك اللحظة يدفعون الجزية ويعيشون فى سلام ! ولكن الغريب حقا ان العرب الذين يعيشون فى الفسطاط لم يهتموا كثيرا بالأمر . ولم يقاوموا العهد الجديد ! عاد عمرو بن العاص من جديد واليا من قبل معاوية ، وسارت الأمور سيرها المعتاد ، فلا ثورة ولا هبة ولا حتى مظاهرة تهتف بسقوط الخليفة !

وعادت المدينة تنمو وتوسع ، وتآكل من الصحراء وتهجم على شاطئ النيل . ولكنها افتقدت الشيء الذى كان موجودا من قبل . اختفى العدل وحل محله مزيج من القيصرية والكسروية والملك العضوض ! وهكذا انشئت المباني وانحطم شيء ما فى داخل النفس ، واتسع العمران واتكملت الحرية ، وانفتح باب التجارة ، واغلق باب الاجتهاد .

ثم جاء يوم كربلاء ، فى رقعة ضيقة من الأرض فى العراق ، وقفت الثورة والثورة المضادة وجها لوجه لأول مرة فى تاريخ الاسلام ، فى معركة الجمل ومعركة صفين كان الأمر يختلف . كان الاسلام فى السلطة ممثلا فى علي ، وكانت الثورة المضادة تدعى حقوقا فى السلطة ، ولكن فى كربلاء كانت الثورة المضادة فى السلطة وكانت الثورة فى الشارع . ولم يكن لديها من أسباب القوة إلا النذر اليسير . ومع ذلك قررت أن تخوض المعركة ، وهى على يقين من خسارتها ، على الأقل لتكون قدوة مادامت لم تستطع أن تكون سلطة وعندما سقط الحسين على الأرض راسا بدمائه - على التراب - نهرا رقيقا من الدم ، سرعان ما اتسع وامتد ليصبح طريقا طويلا ، هو الطريق الوحيد لكل من يرغب - فى المستقبل - فى اعتراض طريق الطاغية أو الوقوف فى وجه الباطل ! ومع ان

الفسطاط على بعد عدة آلاف من الكيلومترات من الموضع الذى سقط فيه الحسين . إلا انها اهتزت للأمر . لم ترفع السلاح في وجه الخليفة القاتل استغفر الله ، ولم تشق عصا الطاغية على الحكم الباغى الذى يتحكم من دمشق ، بل اهتزت بطريقة أخرى مختلفة ، ستصير طابع العاصمة بعد ذلك حتى وان غيرت اسمها من الفسطاط الى القطائع الى العسكر الى القاهرة !

كان الخليفة يزيد الذى أدخل السرور الى قلبه ، العيب برأس الحسين بقضيب من حديد وهو جالس يتسل على سرير الحكم . قد أمر عماله في الأقاليم بأن يبعثوا اليه بنسل النبی ليتخلص منهم جميعا بضربة واحدة وإلى الأبد ! لأنه لن يهدأ لخليفة دمشق بال اذا بقى أحد منهم حيا . ان الكفار الذين انهزموا في بدر تمكنوا من الثأر في كربلاء . ولكن شبح بدر لايفارق الكفار أبدا حتى وان قبضوا على زمام السلطة ، انهم يخشون من بدر أخرى . ولذلك وجبت اباداة كل أسرة النبی الذى هدم الأصنام في الكعبة ، حتى لا يكون هناك أمل في بدر أخرى ، وبهذا فقط يصفو الجو ويروق البال ! وكان والى الفسطاط أحد الذين تلقوا الأمر بالقبض على أهل النبی وكل من يمت الى الحسين بصلة ، وان يرسل الجميع بربطة المعلم الى دمشق لكي يتسلى الخليفة بقطع رقابهم ، ويعلقها على أشجار دمشق الفيحاء ! وكان على والى مصر ان ينفذ الأمر ، وإلا فإن رقبته هو شخصيا ستكون الثمن . ولما كان الوالى حريصا على رقبته ، وحريصا أيضا على انقاذ نفسه من غضب الآله ، فقد هداه تفكيره الى حل وسط يضمن به السلطة في الحياة الدنيا ، والجنة في الحياة الآخرة ! حل يضمن رضا وقبول كل الجبهات والأطراف ! وحل أغلب الظن انه ليس نتاج تفكير عربى ، ولعله نصيحة أسداها لوالى الفسطاط كاهن مصرى يدفع الجزية ، وبالقطع كان أجداده يعملون كهانا في معابد رع وست واتون والعجل أبيس . وسيكون هذا الحل هو طابع مستشارى الحكم في عاصمة مصر الا في فترات نادرة ، ومن النوع الذى لابد من وجوده لاثبات القاعدة التى ستصبح دستور هؤلاء المستشارين في مصر والى اخر الزمان !

ولعل اعظم ميزة في الزمن القديم هي تكافؤ الفرصة بين السلطة والثوار ! لم يكن لدى الخليفة الذى يحكم امبراطورية مباحث أمن دولة ولا مخابرات عامة ، ولاقناصل ولا مخبرون بالقطعة ولاشرطة نجده ، ولاشئ على الاطلاق الا ما يسمعه من رجال الحاشية والخصيان . وقد لايسمع الخليفة بثورة ضده الا اذا دقت الثورة باب الخليفة نفسه ! ولقد

استغل والى مصر هذا النقص الحكومي فعهد الى حيلة ذكية تخلص فيها من كل اعدائه . وضمن الجنة ومرتب الحكومة يقبضه من الخارج آخر العام لقد جمع الوالى كل اللصوص الخطرين والسطار الاذكياء والقتلة السفاحين وقطاع الطريق العتاة . وأرسلهم الى يزيد فى قافلة مهيبة . ومع القافلة رقعة من الوالى : هؤلاء هم اقارب الحسين وخلصهم من حياتهم وخلصنا من شرورهم !

وكان ينبغي ان تمضى القصة الى نهايتها فيصل هؤلاء الى دمشق ويسالهم الخليفة يزيد عن سبب انحيازهم الى الحسين ضده فيقسم هؤلاء المجرمون انهم لا يعرفون الحسين ولم يره احد منهم قط ! وبالطبع . لا يصدق الخليفة ما يدعيه هؤلاء . الكذابون فيأمر بقطع رقابهم جميعا . ثم يدخل جناح الحريم ويستريح !

ولكن الذى حدث فى دمشق كان أعجب . اذ انه كان من المستحيل . بعد وفاة النبی ببضعة أعوام . ان يقتل احد من الناس حفيده الحسين ويحتفظ بعقله . كان الاسلام لا يزال فى المهد . وكان ملايين المسلمين الذين على قيد الحياة قد شاهدوا النبی باعينهم وصافحوه بايديهم وامنوا به وبرسالته . وكان عسيرا على هؤلاء جميعا ان يصدقوا دعوى يزيد ضد الحسين . فهو على كل حال ابن بنت النبی وابن ابن عمه . ولقد جن يزيد بالفعل . ودخل حالة غيبوبة شديدة واختلط عقله فمزج بين الواقع والحلم . بين السلطة والايمان . بين العرش ونعيم الجنة . ويبدو انه استبشع منظر يديه المخضبتين بالدم . دم الحسين فى رقبته . فمن ذا يكون شفيعه يوم الهول ! ولربما اراد يزيد ان يقدم شيئا بيديه . ربما يغفر له ما تقدم له من ذنبه وما تاخر . ربما يشفع له عندما ينفخ فى الصور . ويبعث الناس وفى يمين كل منهم كتابه ! ولذلك لحظة وقع بصره على القافلة المصرية الآتية بشحناتها من المجرمين العتاة . طلب اطلاق سراحهم وتكريمهم وان تجرى عليهم روايت لاتنقطع من بيت المال . وعاد المجرمون الذين اراد الوالى ان يتخلص منهم الى مصر . عادوا اشرافا بشهادة من الدولة . وهل هناك اشرف من نسل الرسول ؟

رواية مصرية قد تكون هى الحقيقة . وقد تكون هى رأى المصريين فى هؤلاء الذين يدعون الشرف ويمارسون سلوك السوق . ولكن حكمتها البليغة تكمن فى موقف الوالى من تنفيذ أمر الخليفة . ان ينفذ الأوامر كما هى بالحرف . وان يتجنب قدر الامكان المتاعب . وان يحقق - قدر الامكان - المكاسب . وان يحتفظ فى كل الأحوال بالوظيفة والمرتب والبقاء الى جوار

السلطان : صفة كل موظف مصرى منذ تلك اللحظة والى الأبد . وسنلاحظها جيدا فى العصر الحديث . عندما نفذ الموظفون المصريون أمر عبدالناصر وطبقوا الاشتراكية . طبقوها بما يرضى عبدالناصر . وبما لا يحقق الاشتراكية ! وبما يضمن لهم فى الوقت نفسه حقوقهم فى المرتب والمعاش ! وعاشت الفسطاط بعد ذلك . تزدهر حيناً وتتعثّر حيناً ، وامتدت حتى وصلت الى حلوان وكانت مشتى للولاة ورؤساء الجند وصاحب الخراج ووجوه القوم . وظلت الفسطاط هكذا حالها . هكذا حياتها . حتى سقطت دولة بنى أمية فى معركة الزاب ، وشهدت عاصمة مصر عددا من جبابرة بنى أمية يتسللون اليها فى الظلام هربا من بطش الخليفة العباسى . وقد طالهم يده بعد ذلك وقتلهم جميعا فى قرى الصعيد ! وكان من بين الذين دخلوها فتى أعور شديد العزم شديد البأس ، حديدى الإرادة ، دخلها وخرج دون أن تمتد اليه يد ، وواصل رحلته الطويلة الى بلاد المغرب حيث موطن اخواله . ومن هناك رنا بعينه الوحيدة عبر البحر الى الأندلس ، كان يحلم واستطاع أن يحقق الحلم . وعبر بجيشه الصغير البحر الى شاطئ الأندلس ، ولم يلبث أن أقام فيها أعظم وأقوى دولة اسلامية شهدتها المغرب بعد فتح موسى بن نصير . هذا هو عبدالرحمن الأموى . أو عبدالرحمن الداخل . وصقر قریش ، كما كان يحلو لعصبته وانصاره أن يطلقوا عليه !

ولكن قبل ذلك بزمن قصير ، شهدت الفسطاط لمحة عابرة من العدل السابق ، وقد ومضت فى حياتها كالبرق ثم لم تلبث أن اخنفت ليحل محلها الظلام . فقد ارتقى السلطة فى عاصمة الأمويين عمر بن الخطاب آخر . كان يدعى عمر وكان ابوه يدعى عبدالعزيز ، وكان مجيئه فى دولة الظلم هو تأكيد لها ، لأنه الاستثناء الذى يثبت القاعدة ! ولو كان عمر بن عبدالعزيز هو القاعدة فى دولة بنى أمية فلربما عاشت دولة بنى أمية الى اليوم . ولكنها تحولت الآن الى فندق فى دمشق والى مطعم فى بيروت . وقد احست الفسطاط بالفرق حين وصل الى الواالى كتاب أمير المؤمنين يحثه على مقابلة فرتوتة السوداء التى تسكن الجيزة ، ومعرفة شكاواها وتحقيق مطلبها وتسليمها خطابا شخصيا من أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز . أمير المؤمنين . وفرتوتة السوداء ومن هى فرتوتة السوداء ؟ امرأة أغلب الظن حبشية وقبطية ولها مظلمة . لم يكن عند عمر بن عبدالعزيز ديوان للمظالم ، ولكنه كان ينظر فى المظالم بنفسه ولدى بعض الحكام اليوم دواوين للمظالم . ويبدو انها لتحصر المظالم ، أو لتسبب الظلم للناس

بعض عرب اليوم يقتبسون الاسماء من عرب الأمس ، مجرد الاسماء فقط .
فهم عرب اسما وفرنجة في الواقع ، ولديهم كاتب عدل ، وهو أظلم من
الحجاج . وعندهم قاض وقضاء ، القضاء والقدر أرحم منهم !
ولقد ظلت الفسطاط على هامش الحياة العربية حتى وفد إليها ذات يوم
ولد مستعرب أرسله سيده ليحكم ولاية مصر بدلا منه . كان الخليفة
العباسي قد منح ولاية مصر لرجل من الإشراف ، ولكنه كان يشكو من ألم في
الركبتين ، فأرسل الرجل المريض واحدا من حشمه ليحكم مصر ، ولكن حظ
مصر كان عظيما لأن السيد كان مريضا ، فقد بدأت الفسطاط تدخل عصرا
جديدا بقدوم الوالي الجديد أحمد بن طولون . فقد كان طموحا وفارسا
وحاكما بالموهبة ومقاتلا بالغريزة ورأى أن الفسطاط لا تتسع لاصلاحه ،
فهجرها وأقام عاصمة أخرى على مقربة منها هي القطائع . اقتطع أرضها
لجنوده فعمروا فيها الدور ، وأقام فيها مسجده الذي سيبقى إلى الأبد
واحدا من أعظم مساجد العالم الاسلامي . وسرعان ما هجر المصريون
مدينة الفسطاط وازدحموا حول القطائع . وأغرب الظواهر أنهم استخدموا
حجارة الفسطاط في تعمير القطائع ولم تمض سنون عدة حتى كانت
الفسطاط قد أصبحت اثرا بعد عين حتى جامع عمرو بن العاص هجره
المصلون فصار ظللا ، واقفرت الشوارع حوله وانتشرت البرك
والمستنقعات في داخل الفسطاط . وبمرور الزمن تحولت إلى مأوى للصوف
وقطاع الطريق وعلى بعد ميلين منها كانت الأنوار تشع في عاصمة العهد
الجديد . ظاهرة جديرة بالدراسة . فالحياة للأقوى والولاء للحاكم الجالس
على أريكة الملك هذه اللحظة . والخضوع للراكب الآن في عربة السلطة .
أما الذين مضوا وذهبوا فليرحمهم المولى ! وقد يكون هذا موقفا مشتركا بين
شعوب كثيرة وأجناس شتى . ولكن الموقف من الفسطاط مختلف . لقد
هجر الناس العاصمة عندما ابتعد عنها الحاكم . فالحاكم هو العاصمة لأن
العاصمة ليست منازل ومدارس وفنادق وأسواقا . العاصمة نفوذ فإذا
ابتعد عنها النفوذ ساروا وراءه !





الفصل الأول

مَسِيحَةُ الْأَقْدَارِ

ولكن وبالرغم من كل شيء ، ظلت
الفسطاط درة في تاج الخلافة أيام
دمشق . وشهدت القاهرة ولاية في مرتبة
عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي السرح
ومحمد بن أبي بكر وعقبة بن أبي سفيان
شقيق معاوية ، وعقبة بن عامر الجهني
صاحب رسول الله ورديفه ، وعبدالعزیز بن مروان ، وعمر بن عبدالعزيز ،
وقرة بن شريك العبسي ، وكان آخرهم عبيد الله بن مروان الحمار . وفي
ولايته دالت دولة بني أمية ، وانتصر العباسيون في معركة الزاب ، فلاذ
آخر ولاية مصر الأمويين بالفرار ، وهرب نحو الصعيد ، فتعقبه عسكر بني
العباس والقوا القبض عليه في قرية ابوصير من أعمال الجيزة ، وقتلوه شر
قتله ، وطرحوا جثته في العراء حتى اكلت منها الذئاب والكلاب . فلما علم
ابنه ان اباها هرب ثم قتل ، قام الى خزائن المال فهدب منها عشرة آلاف دينار
ذهبا ، واستولى على كميات كبيرة من التحف والقماش والفرش ، وحمل
ذلك كله على اثني عشر بغلا ، واصطحب معه جماعة من عبيده ، وشد على
وسطه خريطة فيها جواهر نادرة ، وخرج من مصر هاربا متوجها الى بلاد
النوبة ، فلما وصل الى هناك ، اقام في أحد القصور المهجورة ، ثم ارسل
بعض عبيده الى ملك النوبة طالبا الأمان على نفسه من القتل . فلما أصبح
العبد بين يدي ملك النوبة ، سألته الملك : هل جاء أميركم مقاتلا أم
مستجيرا ؟ فأجابه العبد : بل جاء مستجيرا من عدو يريد قتله . فقال
الملك : اذن سأذهب معك لمقابلته في هذه الساعة . فلما أقبل ملك النوبة على
الأمير ، أصيب الأمير بالدهشة ، فقد كان ملك النوبة رجلا أسود اللون

طويل القامة نحيف الجسد يرتدى ملابس عادية فقيرة المنظر ويضع في قدميه تعالا . وتقدم ملك النوبة فقبل يد الأمير . فأشار اليه الأمير بالجلوس على مرتبة عالية كان قد صنعها ليجلس عليها ملك النوبة . ولكنه رفض وجلس على الأرض . وصمت دهرًا طويلا قبل ان يقول للأمير : كيف سلب منكم ملككم ؟ وانتم اقرب الناس الى نبيكم . ثم سكت ملك النوبة ساعة قبل ان يقول : وكيف تنتمون الى نبيكم بقرابة وانتم تشربون ماحرم عليكم من الخمر وتلبسون ماحرم عليكم من الديباج والحريز . وتركبون ماحرم عليكم من سروج الذهب والفضة ؟ مع أن نبيكم لم يفعل شيئا من هذا على الاطلاق . وبينما أحنى الأمير رأسه وراح ينظر في الأرض . واصل ملك النوبة حديثه فقال له : لقد بلغنا عنك وعن أبيك وحاشيتكم انكم كنتم تخرجون الى الصيد . وتكلفون أهل القرى مالا يطيقون . وتفسدون الزرع على الناس . وكل هذا من أجل أنرب تصيدونه قيمته سبعة انصاف . وراح ملك النوبة يعدد مساوئ الأمير وأبيه . ثم قال وهو يختم حديثه : لقد سلب منكم ملككم عندما استحللتم ماحرم الله عليكم . وأنا أخاف على نفسي ان انزلتكم عندي فتحل بي النعمة التي حلت بكم . وأمهلك ثلاثة ايام لكي ترحل عن أرضي . وأحذرك اذا اقمتم بعدها أخذت ما معك من اموال وعبيد وقتلتك : فلما سمع كلامه . هرب من النوبة وعاد الى الفسطاط . فقبضوا عليه وأرسلوه الى السفاح في بغداد حيث قتله هناك . ودخلت مصر من بعده عهدا جديدا . وشهدت أمراء من نوع آخر . لم يستفد أحد منهم من حكمة ملك النوبة . فكانوا أكثر فسقا واشد جبروتا من ولاية بنى أمية . ويبدو أن الجماهير في مصر سئمت اللعبة . وادركها اليأس من صلاح الحال . ولذلك ستشهد مصر أول ثورة شعبية في تاريخها كله . ثورة لايشترك فيها مقاتلون محترفون ولافرسان أبطال . ولكنها ثورة شعبية سيقودها جماعة من الفلاحين والحرفيين . وستجذب الى صفوفها كل من آذله الفقر أو طحنه الجوع أو عضه ظلم الولاية وفساد القضاة وجشع العسكر . وسيضطر الوالي العباسي الى الفرار من الفسطاط هربا من الثورة . وسيختبئ مع بعض خاصته في مزارع حلوان . وبدا أن كل شيء في طريقه الى الانهيار . ومصر توشك . على الافلات من قبضة الحكم العباسي . ولكن قدر لأول ثورة شعبية مصرية ان تنحسر موجتها وأن تنكسر شوكتها . والسبب أن الثورة رغم عنفها وقوتها كانت بلاقيادة . صحيح ان الغضب كان في قمته . وسخط الناس كان بلا حدود . ولكن عدم وجود قيادة جعل الناس تفقد الرؤية الصحيحة وتخطيء الهدف . فقد

حدثت خلال الثورة أخطاء شديدة من جانب الثوار . فقد هاجمت الجماهير الغاضبة حواصل التجار داخل القسطنطينية وخارجها ونهبوا مافيها وأشعلوا فيها النيران ، مع أن هؤلاء التجار كانوا رديفا للثورة ، وربما كانوا أكثر سخطا على السلطان . كما اعتدت بعض اجنحة الثورة على بعض الحارات داخل القسطنطينية ، واعتدوا بالضرب على الأمنين من السكان . وفي النهاية تم قمع الثورة قمعا شديدا . واضطر الخليفة المأمون الى قيادة حملة والحضور الى مصر لقمع الثورة فيها . وقد دخلها في شهر محرم واستطاع ان يقضى على الثورة بعد أن أمعن في القتل ، وقيل أن الطيور الجارحة كانت تحلق في الفضاء ولاتنقض على الجثث المطروحة في الصحراء ، لأنها اكلت حتى شبعت . وعندما هدأت الأحوال في مصر ، عاد واليهما المختفي في خرابات حلوان ، وكان يدعى عيسى بن منصور الرافقي ، وقيل ان المأمون وبخه بالكلام وقال له هذا كله لسوء تدبيرك وظلمك لأهل القرى . لقد حملت الناس مالا يطيقون وكتمت الأمر عنى حتى عظم . وعزل المأمون واليه عيسى بن منصور ووضعوه في السجن وعين الانشيين أميرا على حملة ، وعهد اليه بتعقب الفارين من الذين قادوا الفتنة في بر مصر ، فتوجه الى الصعيد ، ودخل في معارك رهيبة وأسر جماعات كثيرة وأحضرهم بين يدي المأمون ، فأمر المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والصبيان ، فلما خمدت الفتنة ، سرح المأمون في ضواحي مصر ، فكان يقيم في كل قرية يوما وليلة ثم يرحل عنها . وكانت القرى تتنافس فيما بينها لتقديم أشهى المأكولات والمشروبات للخليفة وجيشه ، ويقول عمنا بن اياس (وكانت موائده تضم كل الاصناف من غنم وبقر ودجاج وأفراخ سمك وأوز وسكر وعسل ولوز وفاكهة وحلوى ومسك وماء ورد وشمع وبقولات وغير ذلك) وقيل أيضا انه خرج من سرحته التي استمرت نحو أربعة أشهر وأياما منذ خروجه من بغداد وعودته اليه بأربعة مليارات من الدنانير الذهب غير الهدايا والتحف ، ففرق على عسكره لما رجع الى بغداد لكل واحد منهم ملء كفيه دنانير ذهب . وإذا كانت الثورة قد قمعت بلا هوادة ، فالحق أقول ان السبب في نشوبها - غير ظلم الولاة وفساد القضاة والعسكر - يرجع الى رجل من افاضل الناس والى سيدة عظيمة من بيت النبوة . أما الرجل فهو الامام الشافعي ، أما السيدة فهي السيدة نفيسة بنت حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن الامام علي بن ابي طالب . أما الامام الشافعي فكان مولده بغزة ، وقيل بعسقلان ، وقيل ان فاطمة ام الامام الشافعي رأت في منامها وهي حامل به أن نجما خرج من بطنها وله ضوء عظيم فسقط بأرض مصر ،

ثم طارت منه شظايا فانتشرت في سائر الافاق ، وكان مولده ١٥٠ هجرية ،
وهي السنة نفسها التي توفي فيها الامام ابوحنيفة النعمان بن ثابت رضى
الله عنه . وقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، وقرأ الموطن على
الامام مالك بالمدينة ، وتفقّه على مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة ، وأذن له
في الافتاء وهو ابن خمسة عشر عاما . وتوجه الى بغداد وهو في طريقه الى
مصر وزار قبر أبى حنيفة ، وكان يقول من اراد الفقه فعليه بأبى حنيفة ،
ومن أراد الحديث فعليه بالامام مالك . وفي مصر تفرغ الامام الشافعي
للعلم ، وصنف نحو مائتي جزء في الفقه والاحاديث ، والتف حوله خلق
كثيرون ، فلما اشتد بهم الكرب ، وثقل عليهم ظلم الولاة والقضاة ، كانوا
يلجأون اليه يطلبون المشورة . فكان يردد دائما على مسامعهم ، لا يصلح
أمر الناس الا عزائمهم ، ولا يقبل الظلم الا ميت ، أما الحي فهو اذا لم
يقاقل ، فهو على الأقل قادر على أن يصرخ . وكانت هذه فتوى شرعية من
امام الزمان والعصر لجموع المصريين أن ينتفضوا ضد ظالمهم وأن يهبوا
ضد جلاديهـم . وذات مساء ، وكان لديه خلق كثيرون ، سألـه أحدـهم عن
الطريق لاصلاح ما أفسده الدهر . فأجاب الامام الشافعي : اذا لم تكن
الكلمة سداة فليكن السيف . وكانت هذه اشارة واضحة صريحة لبدء
الثورة ضد الطغاة والظالمين . وما أكثرهم في دولة بني العباس . في نفس
الوقت كانت السيدة نفيسة تفتح أبواب بيتها أمام جموع المصريين ،
وكانت قد لقيت هي وأهلها ظلما كثيرا على يد دولة بنى أمية ثم على يد دولة
بني العباس . وكان زوجها أميرا على المدينة المنورة ولكن العباسيين
خلعوه من ولايتها ، فهاجر من الجزيرة العربية واختار مصر منفى له .
ومنذ ان حطت السيدة نفيسة رحالها في مصر المحروسة ، التف حولها
المصريون ، وقصدها أصحاب الحاجات ورجال العلم والدين . وكانت
نموذجية في سلوكها كريمة في عطائها فريدة في حلمها ، فأحبها المصريون
وأمنوا بها لدرجة انه عندما فكر زوجها في الرحيل والعودة الى المدينة ،
توسل اليه المصريون ان يترك السيدة نفيسة في مصر اذا بقي مصرا على
العودة الى مسقط الرأس . واضطر الزوج الكريم الى النزول عند رغبة
الجماهير والاقامة في مصر الى الابد . وقبل اندلاع الثورة بقليل كانت
السيدة نفيسة تحرض المصريين على المقاومة ضد الظالمين والوقوف في وجه
الحمقى من الولاة وحكام الأقاليم . وعندما ابدى لها البعض عجزهم
وضعفهم ، قالت لهم : لم يكن الحسين الا فردا واحدا أمام دولة غاشمة
وملك عضوض ، ولكنه لم يهرب ولم يستسلم ، وقاتل ضد الظلم حتى

قتل ، وفهم المصريون ان مقاومة الظالم لاتحتاج الى جيوش ، والوقوف
ضد الطغيان لا ينتظر كشف حساب لموازن القوى . ولكن مثل هذه الأمور
تحتاج الى وقفة رجال ، والى استعداد للتضحية بالحياة ، باعتبار انه من
الخير للإنسان اذا ساءت الحياة ووصلت الى حد الذل أن يموت ، ويصبح
بطن الأرض خيرا له من ظهرها . وكان الرجل المصرى الذى حرك الثورة
ونفخ فيها النار هو أحمد البنهاوى ، وأصله من بنها العسل . وسميت
كذلك لأن مقوقس أرسل ضمن هداياه الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم
زئجة عسل نحل ، فلما تذوقها الرسول الكريم ، أبدى استحسانه الشديد
وقال من ابن هذا العسل : ففيل له من قرية فى مصر يقال لها بنها ، فقال
صلى الله عليه وسلم : برك الله فى بنها وفى عسلها . وكان أحمد البنهاوى
رجلا عالما باللغة والحديث والتفسير ، فصيح اللسان ، شجاع القلب . وقد
أخذ على عاتقه تعبئة الجماهير فى القاهرة ضد الحكم العباسى . ثم سافر الى
بنها . ثم عاد الى القاهرة مارا بعرب برشوم والعمار وقلوب . واستطاع ان
يبدد هناك خلايا الثورة وأن يمددها ببعض المال الذى استطاع أن يجمعه
لشراء السيوف والخناجر والحرا ب . وقيل أن أغلب الأموال التى جمعها
كانت من السيدة نفيسة ومن الامام الشافعى . ولو كانت خطة أحمد
البنهاوى قد سارت فى طريقها المرسوم ، لنجحت الثورة فى تحقيق أهدافها .
ولكن لأن التاريخ ليس على هوى المخططين ، ولكنه يسير على هوى
التاريخ . فقد وقعت حادثة غريبة أودت بحياة أحمد البنهاوى قبل قيام
الثورة بأيام . وأصل الحكاية أن بعض قطاع الطرق نهبوا قافلة تجار
بالقرب من قلوب . وهرغت الى هناك بعض الفرسان من حرس الوالى
لتعقب اللصوص . وحدث أنهم كبسوا على قلوب وكان بها أحمد البنهاوى
فى بيت منعزل مع فريق من أصحابه ومعهم سيوف وخناجر وحرا ب من
التي أهدوها للثورة ، فظنهم الجنود قطاع الطرق . ونشبت بين الفريقين
معركة ، انتهت بمقتل أحمد البنهاوى ورفاقه بعد معركة شرسة مات
وجرح فيها عدد لا بأس به من الجنود . وربما كانت هذه المعركة غير
المقصودة ، هى أول معركة من معارك الثورة ، فقدت نشبت المعارك بعدها
بقليل . لأن الثوار علموا مصير أحمد البنهاوى ، ولديهم سلاح والآت
وعدد ، وهكذا نشبت الثورة بعد أن فقدت القيادة المخططة . ولكنها نشبت
وانتشرت وانتصرت فى عدة معارك دفعت الوالى الى الهرب من القاهرة
واللجوء الى حلوان . وكما نشبت فى القاهرة ، نشبت أيضا فى بنها ثم
انتقلت الى (طنندا) فتطايرت ووصلت الى الصعيد . ولم تكن فى الصعيد

سعر فاعل . ولكن الناس كانوا في انتظار أى مناسبة وأى إشارة لى تقوم
المورة وتشتعل النيران .

وإذا كان مصر الثورة قد انتهى الى الفشل . فقد عبر المصريون عن
رايهم في نظام الحكم العباسى . واستطاعوا دفع بعض المظالم . ومنع
بعض الاعتداءات . وارساء بعض القواعد . وكان أهم هذه القواعد هو
ارتباط رجل الدين بالزعامة وسيصبح كل زعماء مصر بعد ذلك من رجال
الدين . وسنكتشف من خلال قراءة التاريخ أن كل مشايخ مصر الكبار
وأصحاب الأضرحة الكبيرة والموالد المزدهمة . هم في الحقيقة زعماء
سياسيون قبل ان يكونوا رجال دين . وانهم كانوا في صف الجماهير ضد
الحاكم والوالى وعساكر السلطان . وكلهم وبلا استثناء ومن أول السيدة
نفيسة والامام الشافعى والى الحسن الشاذلى والمرسى ابو العباس وسيدى
أحمد البدوى والشاطبى والقبارى وابراهيم الدسوقى . كلهم قاوموا
السلطة الغاشمة والملك العضوض . وبعضهم اشترك في محاربة الغزاة
وقبادة المقاومة ضد الغزاة الاجنبى . أما المشايخ الذين اكتفوا بالتسبيح
والتفسير والتسول من الاثرياء والولاة . فهؤلاء كنسهم التاريخ من ذاكرة
المصريين والقى بهم في غياهب النسيان .

المهم هناك واقعة طريفة لآبد من سردها في هذا المقام . وهى أنه عندما
حضرت الوفاة شيخ مصر الكبير الامام الشافعى ، أوصى أهله ومريديه بأن
يتولى غسله والى مصر ولا أحد سواه . فلما مات أبلغوا الوالى وصية
الشيخ . فسأل الوالى أهل بيت الامام الشافعى هل عليه دين ؟ فقالوا نعم ،
أربعون الف دينار . فقال هذا هو غسله . وقام بتسديد كافة ديون الشيخ .
وقيل ان هذه الديون هى نفسها الأموال التى أمد بها الامام الشافعى أحمد
البنهاوى للاعداد للثورة ضد الحكم العباسى .

ما أبعد الفرق بين اليوم والامس . وما أبعد المسافة بين الامام الشافعى
وبعض أئمة هذا الزمان . هؤلاء الذين وضعوا انفسهم في خدمة شركات
توظيف الأموال ، وساعدوها باسم الاسلام . وعاونوها على النصب
والاحتيال باسم الدين . واخترعوا أكاذيب وآقوال ما أنزل الله بها من
سلطان .

رحم الله الامام الشافعى ، وغفر الله لحضرات السادة أئمة آخر الزمان !

□ □ □

© 1974
40



الفصل الثاني

أحمد والجدة

كان عهد ابن طولون هو بمثابة عودة
الروح الى مصر من تانى . وكان المملوك
التركماني ابن طولون على موعد مع مصر
وكان الاثنان على موعد مع القدر . لقد
هبت مصر واقفة مرة اخرى على قدميها
لحظة دخول ابن طولون مصر . وكان
الولد عظيم الشأن والشئشان ، وكان
مملوكا لرجل من سادة بغداد ، وكان
السيد مريضا لا يقوى على المشى

وعندما صدر أمر الخليفة للرجل المريض بالسفر الى القاهرة واليا على
مصر استأذن الرجل في أن يرسل مملوكه أحمد بن طولون . ويبدو الأمر كله
الآن وكأنه من تدبير السماء ! فلم تكد تمر سنوات قليلة على دخول
ابن طولون مصر حتى كانت جيوشه تزحف نحو الغرب لتضم ليبيا
وأجزاء من تونس الى مملكته الجديدة ولعلها أول مرة وآخر مرة أيضا
يتجه فيها جيش مصر نحو الغرب . فقد جرت العادة قبل ذلك على أن
تتحرك الجيوش المصرية نحو الشرق ، وكانت الشام والجزيرة العربية
هما مطمع كل نظام قوى في مصر ولكن ابن طولون لسبب لا يعلمه أحد
خرق القاعدة واتجه نحو الغرب وعندما حقق ما كان يصبو اليه عاد مرة
اخرى فسار على درب أسلافه وخلفائه أيضا فزحف نحو دمشق والشام ،
وأسس أول امبراطورية مصرية بعد الفتح .

ولقد كانت عاصمته الجديدة - القطائع - غاية في الفن الهندسي أنفق على إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب ! وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع . واستخدموا في بناء دورها وقصورها حجارة الهرم الأكبر فلما منهم أن القدماء قد قاموا « بتشوين » هذه الحجارة على شكل اهرامات تمهيدا لبناء مدينة .

ولما كانت القطائع تقع على قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواق في المكان المعروف الآن بغم الخليج ولقد عاف الناس شرب الماء أول الأمر . وكانوا يعانون كثيرا في الذهاب الى النهر لأخذ حاجتهم من المياه . وأفتى شيخ مشايخ مصر بأن ماء القناطر أسن وشربه حرام واستعماله في الوضوء باطل . وعندما علم أحمد بن طولون بالأمر أرسل عددا من رجاله بعد منتصف الليل الى منزل شيخ المشايخ وصحبوه معهم ، وأدرك الرجل أن في الأمر سرا . وأنه هالك لا محالة . واصطحبوه الى ساحة واسعة تتفرع فيها القناطر الى اتجاهات عدة وفوجيء الشيخ الذي كان يزحف نحو السبعين بأحمد ابن طولون يقف عند حافة القنطرة . ووقف الشيخ العجوز يرتعد من شدة الخوف والبرد . ووقف أحمد ابن طولون صامتا يرنو الى المياه الباردة المتدفقة من أعلى الى أسفل منحدره بشدة نحو بيوت المدينة ثم انحنى الحاكم وعب من المياه عب ظمان طال به العطش والشوق . ثم دعا شيخ المشايخ الى الشرب فانحنى الرجل وشرب حتى امتلأت بطنه . ثم تجشأ في سرور وهتف في فرح بالغ : ياله من مذاق أطيب من مذاق نهر الجنة ! شيخ المشايخ الذي أفتى بأن ماء القنطرة حرام . هتف أمام الحاكم : ياله من مذاق أطيب من مذاق نهر الجنة ! وستكون هذه ايضا هي سمة كل مشايخ مصر الكبار إلا في لحظات نادرة وسيكون هدف المشايخ بعد ذلك إرضاء الحاكم ثم إرضاء الله ! وستشهد عاصمة مصر بعد ذلك عددا من المشايخ على شاكلة شيخ عصر ابن طولون ، بعضهم يفتى بأن البيبسي كولا حلال وبعضهم يحكم بأن فاروق الأول من نسل محمد عليه الصلاة والسلام وسيصبح المشايخ بعد حادث ابن طولون جزءا من السلطة ، لهم الرواتب والمناصب والهبر الشديد !

وعاش ابن طولون يقاتل كل يوم من أجل الحفاظ على مملكته قاتل الروم والعرب وابنه ايضا الذي انتهنز فرصة غياب ابيه في بعض الفتوحات واستولى على السلطة ولكن الرجل الهمام ابن طولون عاد فاستولى على مصر مرة أخرى وقتل الولد الذي سدد اليه طعنة في الظهر . وتخلص ابن طولون من جميع الأعداء بضربة واحدة !

ولكن العمر لم يمهل ابن طولون ، فسرعان ما غادر الحياة . وجاء الى العرش خليفة هزيل شغوف بالنساء والعطور . محب للحياة . وكانها ستصير عادة الحكم في مصر بعد ذلك . كلما تولى الامر فيها رجل قوى خلفه على العرش رجل هزيل فمضى ابن طولون الى خمارويه ، ومن صلاح الدين الى الملك الصالح ، ومن على بك الكبير الى البرديسى . ومن محمد على الى سعيد ومن جمال عبد الناصر الى .. عصر الانفتاح والانبطاح والغم الشديد ! واذا كان ابن طولون قد اختار الدخول في معركة مع خليفة بغداد الضعيف ، فقد اختار خمارويه الدخول معه في مصاهرة وشهدت القاهرة ليالى ملاحا اشبه ما تكون بالليالى الملاح التى تشهدها الآن عند زواج بنات السلطة بانباء الاثرياء والاعنياء والذين في جيوبهم مرض ! ولما مرض بالارق اقام بركة وأجرى فيها الزئبق بدلا من الماء ، ونام على بحيرة الزئبق يتأرجح سريره كطفل تهدده الاماء . ولكن مصر كلها كانت تهددها أيدي الثورة . وكان عهد ابن طولون قد استنفذ أغراضه . لقد اقامه رجل واحد قوى الشكيمة شديد البأس عظيم الطموح . فلما مات ماتت دولته كذلك ، وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذى قام لم يكن دولة ابن طولون ، ولكن شيخ الدولة وصدى الصوت القوى الذى كان يتردد في جنباتها يوما ما غير بعيد .

وهكذا حلت دولة الأخشيدي مكان دولة ابن طولون ودخلها عن طريق البحر ، ورست قطع اسطوله المتواضع في النيل امام القسطنطينية القديمة والقطن الجديدة . وعاد وعاظ المساجد يخطبون باسم الأخشيدي ويلعنون سنسفيل جدود عهد ابن طولون ، ولا أحد يدري بالضبط ماذا أطلق عليه وعاظ المساجد . ولكن الأكيد أنهم وصفوه بالعهد البائد ونسبوا اليه كل نقيصة ، ورموه بكل مصيبة ونسبوا قبر ابن طولون ونعتوه بالديكتاتورية والشيوعية ، والصقوا به النكسة التى حلت بمصر ، أى نكسة واى وكسة ، لا بد أنها من صنع يدى الحاكم الذى مات ، اما الذى يتربع على عرش مصر فهو الفريد وهو الوحيد وكلهم ركش ! طابع ، ربما لا تنفرد به مصر بين الدول ، ولكنها تتفنن فيه وتضعه في إطار ، وتضيف اليه أشياء وأشياء في كل حين !

وهو مرض استوطن في مصر منذ عهد عمنا رمسيس ورعمسيس واحمسييس لدرجة ان كل حاكم جديد كان يتولى الحكم كان يمحو أسماء من سبقوه من فوق الاهرامات والمعابد ويضع اسمه الكريم محل الاسم المطموس .

أحوال وأهوال ولله في خلقه شؤون !

ولقد جاء عصر الأخشيدي ومضى دون أن يترك خلفه أثرا لامعا في التاريخ ، اللهم الا بناء عاصمة جديدة لمصر هي العسكر . وبناها الناس من حجارة بيوت عاصمة ابن طولون (القطائع) ومما اقتطعوه من حجارة الأهرام وأثار القراعنة في أبي صير وسقارة ويقال إنه كان في أبي صير أربعة عشر هرما صغيرا هدمت كلها واستخدمت حجارة في بناء عواصم مصر الأربع ، القسطاط والقطائع والعسكر ، ثم القاهرة بعد ذلك ، وعانت مصر من المجاعة في الدولة الأخشيدية بسبب نقص جريان النيل ، واستمر القحط تسع سنوات ، وبيع أردب القمح بثلاثين دينارا ، وكان ثمنه في عهد ابن طولون دينارا واحدا لكل عشرة أرداب ! ولكن الأحوال عادت فانصلحت والأمور استقامت بعد ذلك في عهد الأمير أبو بكر الأخشيدي وبلغ من رخاء الحال وازدهار الأحوال أن الخراج بلغ في أيامه مليون دينار ، وأن الأمير صنع لأولاده فوانيس شمع في ليلة شم النسيم فكان مصروف ذلك مائة وعشرين ألف دينار . وعندما مات الأمير أبو بكر كان الأمير سيف الدولة يواجه الروم وحده في حلب ، والخليفة العباسي يعاني الوحدة والعزلة في بغداد ، وكان الفرنجة يجوسون خلال ديار المسلمين على مزاجهم ، ويدوسون على مقدسات العرب على كيفهم ، وكل شيء في ترد وكل شيء في انحطاط . ولكن ذلك لم يمنع شاعرا أرزقيا عظيما هو المتنبي من رثاء الأمير ابو بكر بهذه الأبيات :

لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم
ومن فخر ومن نعماء لا تسعا
يا لحد طل إن فيك البحر محتبسا
والليت مهتصرا والجود مجتمعا

ولعل تلك كانت هي بداية العلاقة بين المتنبي ودولة الأخشيدي . وعندما تولى الأمر كافور الأخشيدي وكان خادما لدى الأسرة وايضا كان أستاذا لأولادها حتى وقعت في مصر هزة أرضية عظيمة « خافوا الناس من ذلك وهربوا الى الجبال » وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس ، حتى أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمي محمد بن عاصم ، إذ دخل عليه والفي قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت :

مازلت مصر من خوف يراد بها
لكنها رقصت من عدله طربا
قصيدة نفاق من شاعر كذاب دفع فيها كافور ألف دينار ذهباً ، وهذه

الجائزة هي السبب الحقيقي الذى جعل المتنبى يشد رحاله الى كافور ، فاذا كان يدفع ألف دينار ذهباً لشاعر خفيف الوزن مثل ابن عاصم فكم يدفع لشاعر فى وزن المتنبى ؟ واذا كان المتنبى هو شاعر أرزقى على المستوى القومى ، فالشاعر محمد بن عاصم هو شاعر أرزقى على مستوى إقليمى ، وهو نموذج من الكتاب والأدباء والشعراء المصريين ستصادفهم كثيرا فى تاريخ مصر ، وحتى يومنا هذا .

ويخطئ من يعقد المقارنة بين كافور الأخشىدى وبين بعض من حكموا مصر ، ولقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم ، وكان لايصاحب الا أعلم أهل زمانه ، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة . وكانت مواده العامرة مذبولة للجميع ، ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء ، « وكان لمطبخه فى كل يوم ألفا رطل من اللحم البقرى وسبعمائة رطل من اللحم الضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمائة طير دجاج ، وثلاثمائة فرخ حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار ، وعشرون جملا رضع ، وثلاثمائة صحن حلوى ، وألف قفص تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وكان يحضر على سباطه الخاص والعام » !

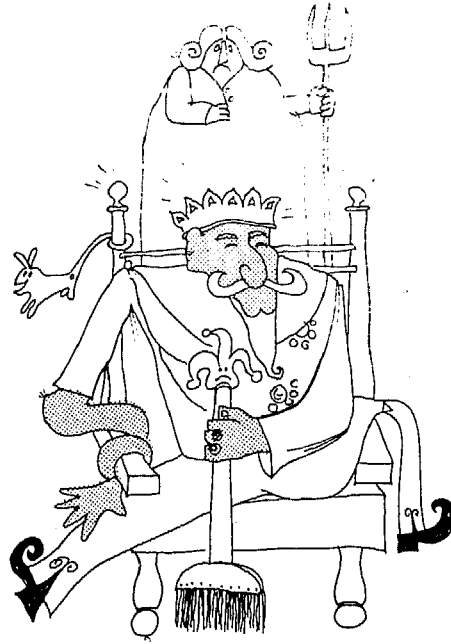
ولكن حظ عمنا كافور السيئ انه اصطدم بأعظم موهبة انجبتها أمة محمد على طول الزمان ، هذا الفتى الموهوب الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، كان بالرغم من موهبته الفذة أرزقيا من أعظم طراز ، مدح كافور فى البداية ثم لعن أباه بعد ذلك . وقال فى تبرير مدحه لكافور إنه كان فاقد الوعي ، العبارة نفسها التى نطق بها متنبى آخر فى هذا الزمان ، مع الفارق الشاسع فى حجم الموهبتين ! فبالرغم من مدائح المتنبى لكافور ، فان الأجيال لم تحفظ إلا تحقيره له وهجومه عليه بعكس متنبى هذا الزمان - توفيق الحكيم - الذى ذهب كتابه - « عودة الوعي - فى زبالة التاريخ وأصبح بمثابة النكتة فى مجالس أهل مصر !

وليس أدل على عظمة كافور من أنه عندما مات ماتت معه مصر ودخلت فى عصر آخر جديد ، ولم ينتشلها من رقتها إلا بطل تاريخى . ولم ينتشل مصر وحدها ولكنه انتشل معها أمة العرب وكرامة العرب ، ورفع رايتهم خفاقة على بيت المقدس .

رجل واحد . ولكنه ولا كل الرجال . اسمه صلاح الدين بن يوسف بن أيوب . ما أشد حاجتنا اليوم الى رجل آخر كصلاح الدين .



٩٠



الفصل الثالث

سيف المعز وذهبه

اضطربت مصر بعد موت كافور ،
واختل الأمن ، وازداد الغلاء ، واصبح
المرء لا يأمن على نفسه اذا سار في
الطريق بعد العصر ! وقال الشيخ شمس
الدين الذهبي في تاريخه : « وطمع
الفلاحون في الجند » وامتنعوا عن وزن
الخراج ، فعند ذلك كتب أعيان مصر إلى المعز الفاطمي - وكان في بلاد
الغرب - بأن يحضر الى الديار المصرية ، ويتسلم المدينة ويتولى عليها ،
فلما وقف المعز على تلك المكاتبات أرسل الى مصر الأمير جوهر القائد الصقلي
ومعه مائة ألف من عساكر الغرب !

وهذا الذي ذكره الشيخ شمس الدين الذهبي « فعند ذلك كتب أعيان
مصر الى المعز الفاطمي » ! أعيان مصر هم الذين استدعوه ليحكم مصر ،
ليجبر الفلاحين على دفع الخراج ، ليحمي الاعيان من قطاع الطرق
والصياغ الذين بلا عمل ، والفقراء الذين بلا مال ! وسنرى هذا السلوك
يتكرر في تاريخ مصر الحديث ، أعيان مصر هم الذي ذهبوا الى محمد على
يركعون عند قدميه طالبين منه أن يتفضل ويحكم مصر ! وأعيان مصر هم
الذين استنجدوا بالجيش الانجليزى ليضرب ثورة عرابي وليعيد الأمن الى
ربوع مصر ! وأعيان مصر هم الذين طالبوا من أنور السادات أن يرفع
شعار سيادة القانون ، لكي يستردوا أراضيهم المصادرة ، وقصورهم التي
انتزعتها منهم الثورة ! وكانت صرخة حمدي عاشور وزير الحكم المحلي
وأحد « الضباط الأحرار » في وجه أنور السادات في أول يوم تولى فيه
السلطة ، هي أول استغاثة من جانب الاعيان للسلطة الجديدة : « ياسيادة
الرئيس احم العمل التنفيذي من العمل السياسى ! وبعدها قال أنور

السادات قولته الشهيرة : « الاتحاد الاشتراكي يخدم ولا يحكم » ! وسار هذا دستور السلطة وقتئذ ، الخدمة للاتحاد الاشتراكي والحكم للاعيان . المهم ، ان المعز لدين الله جاء بناء على طلب من اعيان مصر ، وجاء المهمة محددة هي حماية الأمن وحكم البلاد ، وعندما دخل جوهر الصقلي لم تعجبه عواصم مصر الثلاث التي اندمجت فصارت مدينة واحدة ، فقرر بناء عاصمة جديدة واختار لها مكانا مناسباً عند سفح جبل المقطم في أقصى الشمال من القسطنط عاصمة العرب الأولى . وقد اطلقوا على العاصمة الجديدة في البداية اسم المنصورية ، ثم غيروا اسمها الى القاهرة . واقاموا حولها سوراً من الطوب اللبن ، وجعلوا لها ستة أبواب ، أربعة منها في الجهات الأصلية ، وبابان . سريان كان يعرف أمرهما قائد الجيش وال خليفة شخصياً . وعندما انتهى بناء السور جاء المعز لدين الله ، ودخل المدينة ذات يوم من أيام شهر رمضان .. ولغط الناس بأصله وفصله عند دخوله ، فمتهم من نسبته الى النبي ومنهم من نسبته الى أصل مجوسى .. وكانت الأغلبية من انصار هذا الرأي ! وجاء المعز ومعه ألفان وخمسمائة جمل موسوقة ذهباً خالصاً « وكان معه من القماش والتحف ما لم يسمع بمثله » !!

ولكن . وأيا كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه . فالذى لاشك فيه ان كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئاً والعصر الفاطمى شيئاً آخر . فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة . وهذا هو عصر الاقارب والمحاسيب والانصار . واستعود الدولة المصرية الاسلامية الى عصر فرعون الذى ولى . دولة غنية وشعب من الفقراء . وأسرة حاكمة تملك كل شىء . وشعب لا يملك الا صلاة النبي ! وسيصبح لمصر من الآن ولادة اقل بقليل من ثلاثة قرون من الزمان . دولة بكل ما في كلمة دولة من معنى . جيش مقاتل كل افراده اجانب ومرترقة . وزارة يتولى أمرها القائد جوهر الصقلي ، وجهاز اعلام هو اخطر جهاز اعلامى انشاه العرب في العصر الوسيط . وهو بلاشك كان اكثر تنظيماً وأكثر تأثيراً من جهاز الدكتور حاتم ، رغم ان حاتم كان يعيش في عصر الراديو والتليفزيون والسينما والقمر الصناعى واجهزة التسجيل ! وكان داعى الدعاة هو وزير الاعلام بلغة العصر الحديث .

وكانت مهمة الجهاز التقليدية هي نشر المذهب الفاطمى وتجنيد الانصار . ولكن مهمته الرئيسية كانت هي الحفاظ على أمن الدولة والعمل على استمرارها وجمع المعلومات ايضاً وشراء ذمم الناس ! ولم يجد المعز

لدين الله أية معارضة حين أبطل العمل بالمذهب السنّي في مصر . وتحول الناس جميعا في هدوء الى المذهب الفاطمي . وتم هدم مسجد عمرو بن العاص . أول مسجد أقيم في الاسلام على أرض مصر ، وحل محله المسجد الأزهر ، وهو أقيم في الأصل كجامعة لتدريس علوم المذهب الفاطمي على وجه الخصوص . وعندما أحرقت السلطة كل كتب السنة لم يرتفع صوت واحد بالاحتجاج . انصرف الناس الى أعمالهم كالعادة واهتموا بشئونهم كما كانت الحال من قبل . شاعر واحد رفع صوته بالاحتجاج . لم يهتم التاريخ بذكر اسمه . وأسرت السلطة فضريت عنقه أمام باب الجامع الأزهر بعد صلاة الجمعة . ثم هذا الجو تماما ، وصفت الأحوال ، وانتهى كل شيء . فلم تعد هناك معارضة ، ونزع مشايخ الاسلام زعيمهم القديم الاسود شعار العباسيين وارتدوا الزي الأخضر شعار دولة الانفتاح ! وقد يسأل : لماذا هذا السلوك من جانب المصريين في مواقف تاريخية خطيرة ؟ والجواب أن هذا ليس سلوك المصريين ، ولكنه سلوك مصر الرسمية قشرة رقيقة من شعب مصر هي طبقة الأرزقية والاذناب ، وستجدهم بكثرة في العصر الوسيط وفي العصر الحديث أيضا . ولكن هؤلاء يذهبون دائما في مجرى التاريخ ، وتبقى روائعهم تركم الأنوف الي ما لا نهاية !

وهكذا ، أصبح لمصر أيضا ولأول مرة في العصر الاسلامي ، سيدة أولى ، وهى السيدة ست الملك . وكانت امرأة ذات شخصية طموح ، وكان المعز لدين الله يهابها ، وبلغ من سطوتها أنها كانت تقتل مباشرة برئيس الوزراء والوزراء قواد الجند وتأمروهم فيطيعون . ولم تكن ست الملك زوجة للمعز لدين الله . ولكنها كانت أخته . وقد حازت من أراضى مصر مليوني الف حصص . واشتغلت بالتجارة ، وكانت تقبل الهدايا من حكام الأقاليم والولاة . وعندما ماتت حصروا تركتها فوجدوا عندها من الذهب العيني ثلاثمائة صندوق . ومن الفصوص الياقوت الملونة خمسة صناديق ، للألؤلؤ خمسة صناديق ، ووجد لهل مدهن من الياقوت الأحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا لم يحصل له ثمن . ووجد لها من الأثواب الحرير ثلاثون ألف ثوب !!

وإذا كانت مصر من أوائل دول الأرض التي حكمتها النساء ، أحيانا مباشرة وأحيانا عن طريق غير مباشر ، فإن التاريخ سيذكر لست الملك أنها كانت المرأة الأولى التي حكمت مصر في ظل الاسلام ، وإن الأمر الآن قد أصبح عاديا في دولة الانفتاح الجديدة ، كانت هناك أم الإبطال التي تحكم

بصرache ، وستجد الى جانبها أم البطل صاحبة كازينو الليل في شارع الهرم ، أم بادرة الشهيرة بالمبادرة التاريخية التي فاقت أول رحلة للانسان على سطح القمر !

ولقد مات المعز بعد سنوات أربع من ولايته ، وخلفه ابنه العزيز بالله ، وكان عادلا ورحيما ومحبيا لخلق الله ، وهو الذى استوزر يعقوب بن كلس من أقباط مصر ، وجعل قبطيا آخر اسمه فسطورس عاملا على سائر جهات مصر ، واستخدم يهوديا عاملا على دمشق . وتزوج من قبطية ، وعاشت مصر في عهده في بحبوحة ورغد ، وذاقت طعم الأمن بعد سنوات طويلة من الرعب والضياع . وامتدت ولايته واحدا وعشرين عاما ، وعندما مات خلفه ابنه الحاكم بأمر الله ، وهو واحد من أغرب شخصيات مصر على الإطلاق . فهذا الصبى الذى تولى السلطة وهو فى الحادية عشرة ، والذى كان والده شيخ المذهب الفاطمى وأمه شقيقة بطريك أقباط مصر ، جن جنونه فجأة وهو يقبع وحيدا فى مغارة على قمة جبل المقطم ، وشعر بأن صوتا يناديه ويدعوه الى التوفيق بين دين النصارى ودين المسلمين . واستخراج دين جديد . ولقد بدأ الصبى الصغير فى البحث عن هذا الدين الجديد على الفور . وهواه تفكيره الى انه مادام الله واحدا أحدا ، فلماذا لايتوحد جميع الأنبياء فى واحد فقط ؟ ولماذا لا يكون الحاكم بأمر الله هو هذا النبى الواحد ؟ ولكن عين الدولة كانت تراقب كل شئ عن كثب وكان القلق ينهش قلوب كل افراد الأسرة الحاكمة خوفا من هذا الانقلاب الذى يوشك الحاكم بأمر الله ان يقوده ! وكان أكثر افراد الأسرة قلقا ست الملك عتمه . وقال بعض المؤرخين : انها ليست ست الملك ، ولكنها بست النصر اخته ، وان ست الملك ماتت فى عهد ولاية المعز ، وأياً كانت السيدة التى تامرت ضد الحاكم بأمر الله ، وهل هى ست الملك أو ست النصر ، فهى على كل حال ست والسلام ! وقد انضم الى المؤامرة فوق افراد الاسرة الحاكمة قائد الجيش سيف الدين ابن رواش .

وذات مساء خرج الحاكم بأمر الله من قصره كالعادة يركب حماره الأشهب ، ويضع برده على كتفيه ، وبينما كان صاعدا الى جبل المقطم هجم عليه عدد من العبيد السود الأشداء فقتلوه . ولم يعرف أحد بقتله حتى عاد حماره الأشهب ذات صباح الى القصر وعليه بردة الحاكم بأمر الله وقد تلطخت بالدم . عندئذ تاكد الناس فى القاهرة من قتله . ولكن البحث الطويل لم يسفر عن العثور على الجثة . وقد انتصرت السلطة على أعوان الحاكم وأفراد التنظيم الذى كان يعمل لنشر الدين الجديد فى الخفاء . وكان

اعضاؤه جميعا من الشباب صغيرى السن . وقد تم القضاء عليهم بضربة واحدة والى الابد ، كما اعلن داعى الدعاة بعد ذلك ! ولكن ولدا واحدا استطاع الإفلات من قبضة المباحث الفاطمية ، وتسلل من مصر هربا تحت جنح الظلام واجتاز صحراء سيناء الى بر الشام . وراح يبشر فى بداية الشام وفى وادى اليتم بالدين الجديد ، وأعلن ان الحاكم بأمر الله قد رفع الى السماء ، وأنه المهدي المنتظر الذى سيعود آخر الزمان ليصلح الأرض من الشرور ويقيم العدل قبل يوم الموقف العظيم ، ولد واحد اسمه عبد الرحمن الدرزي ، والى اسمه انتسب معتنقو الدين الجديد : الدرزي ! ولكن الدولة الفاطمية التى نجت من السقوط بموته راحت تكيل التهم له ، ورمته بالجنون ، وبأنه حرم أكل الملوخية ومنع النساء من ارتداء الكعب العالي .. الى آخر هذه التهم الساذجة التى صدقها العامة واصبحت بعد ذلك جزءا من التاريخ ! وتولى ابنه على وجلس على سرير الملك باسم الظاهر لدين الله . وماتت اخته ست النصر ، وكان بين تركتها اربعة الاف جارية وثلاثون زيرا صينيا مملوءا من المسك السحيق ! وذهب الحاكم بأمر الله بسره الى قبره ، ولم يعرف أحد هل كان إلها أم رسولا أم مظلوما ؟ ظلمته الأسرة الحاكمة فقتلته ، وظلمه عبد الرحمن الدرزي فنسب اليه مالم يكن فيه !

ولكنه على أية حال ذهب . أعجوبة مصرية أخرى . وما أكثر ما انجبت مصر من أعاجيب !

٢٠٠٠
٩٠٠٠٠٠٠٠



الفصل الرابع

الشعرى الحاتيشى

ومضت الدولة الفاطمية تمهد الأرض
لنفسها ، تقمع المعارضين أحيانا ،
وتشتري ضمايرهم أحيانا . ودخل
الشعراء والأدباء تحت مظلمة الانفتاح ،
وراحوا يهذون بكلام شديد الهياقة وفي
الدخل ، وظهر لون جديد من ألوان
الشعر لم يكن لمصر عهد به من قبل ، اطلقوا عليه اسم شعر المجون ،
وسماه المصريون الشعر الحلمنتيشي ، ولع من بين هؤلاء الشعراء ابن
مكنسة وابن دنيال وابو الرقعمق . وكان الخلفاء يقطعونهم الاقطاعات .
وصار لبعضهم قطعان الابل والغنم ، واقتنوا الدور الفاخرة على شاطئ
النيل . وغاب عقل مصر تماما ، وتاه فكرها في ضباب الحشيش ، واصبحت
أيام مصر كلها أعيادا ، تفنن الفاطميون في خلقها ، كما برعوا في إقامة
المهرجانات ، تفسخت الدولة وتفشخت . وعندما تولى الخليفة المستنصر
بالله حدث لمصر ما كان متوقعا . نشبت المجاعة أظافرها في البلاد واستمرت
سبع سنوات . (أكلت الناس بعضها بعضا) وبيع فيها القمح بثمانين
دينارا لكل أردب ، ثم اشتد الأمر حتى بيع كل رغيف بخمسة عشر دينارا .
وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط ، حتى قيل بيع كل كلب بخمسة
دنانير ، وبيع كل قط بثلاثة دنانير ، وقيل ان الكلب كان يدخل الدار فيأكل
الطفل في المهذ وأبوه وأمه ينظران اليه فلا يستطيعان النهوض من شدة
الجوع وعدم القوة ، وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف
وبأيديهم حبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد من الناس القوا عليه هذه
الحبال ونشلوه بتلك الكلاليب ، فاذا صار عندهم ، ذبحوه في الحال وأكلوه

بعظامه وقيل ان الوزير ركب على بغلة ودخل الى دار الخلافة ، فلما نزل عنها أخذت عنوة وأكلت في الحال ، فأمسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب ، ولما باتوا ، أصبحوا لم يجدوا أحدا من المشائيق ولم يبق منهم غير العظام على الأرض ! وساءت الأحوال أكثر ، فقيل ان في القسطنطينية حارة تسمى حارة الطبق ، وكان فيها نحو عشرين دارا بيعت كلها بطلب من الخبز ! وذكر الشيخ أبو الفرج الجوزي أن امرأة حاولت أن تبيع كنزا من اللؤلؤ مقابل كيس من الطحين ، ولكنها لم تجد من يبيع لها الكيس مقابل الكنز ! وبسبب المجاعة ، مات نصف أهل مصر ، وقيل ان الرجل كان يمشي من جامع ابن طولون الى باب زويلة فلا يصادف احدا على الإطلاق . واصاب الخليفة نفسه الفقر الشديد ، فباع سلاحه وملابس جنده ، ثم باع رخام قبور أجداده . ولم يبق عنده من آثار النعمة الا سجادة رومية وبقايا مرصع بالجواهر ، ولكن سيظل التاريخ يذكر لهذا الخليفة الفاطمي ان في عهده أصبح المسلمون في مصر أغلبية ساحقة ، واصل الحكاية ان مصر ظلت منذ الفتح الاسلامي والى عهد المستنصر بالله أقلية مسلمة وأغلبية قبطية تدفع الجزية وبعدما انحسرت المجاعة وهذا الحال وصفا الجو للخليفة ، أصدر فرمانا بمنح القبط كل الحقوق التي كانوا محرومين منها في الماضي ، فسمح لهم بالدخول في وظائف الحكومة والاقامة في المدينة وارتداء الملابس العادية ، وكانوا في الماضي يرتدون زيا خاصا بهم ، وحرم عليهم ركوب الدابة بالقلوب ، كما سمح لهم ببناء الكنائس ، وهبت معارضة شديدة ضد الاجراءات الجديدة وتكونت جمعيات سرية من المسلمين ، كان من اهدافها احراق كنائس القبط التي انشئت في القاهرة . وفي المقابل تكونت جمعيات سرية قبطية . أخذت تحرق مساجد المسلمين . واندثرت الفتنة الطائفية حتى حدث ذات يوم أن ضبط بعض القبط يشعلون النار في الجامع الأنور وعثر معهم على صفيحة نפט ومجموعة من الخرق القديمة . فقام العامة بسحل هؤلاء في الشارع . ثم أشعلوا فيهم النار واحرقوهم ! ثم راحوا يجوبون الشوارع يسحلون كل من يلقون من الاقباط ويشعلون النار في دورهم وكنائسهم . ولم تهدأ الفتنة الا في اليوم التالي ، وعندئذ أصدر الخليفة فرمانا اخر يشنق مائتي مسلم وتعليقهم على الاشجار ، من شاطئ النهر حتى قصره عقابا لهم على ما حدث في اليوم السابق ! ولكن جنود الخليفة البلهاء سلخوا الطريق السهل . فذهبوا الى شاطئ النيل والقوا القبض على مائتي فرد من الفلاحين الذين حضروا من الريف لبيع البيض والخضراوات والزبد في القاهرة ، وشنقوهم بعد ما سلبوا منهم بضائعهم وعلقوهم على افرع الشجر !

وخيم على مصر صمت رهيب . واستمر عدة أشهر . وكان ينذر بهيوب العاصفة . وخاف الخليفة من ثورة عارمة . فاصدر فرمانا جديدا بأن يعود الأقباط الى الحال التى كانوا عليها فى الماضى . فحرم عليهم دخول المدينة والسكن فيها كما حرم عليهم الالتحاق بالوظائف الحكومية . وأجبرهم على ارتداء الزى القديم . وركوب الدابة بالمقلوب !

وفى ذلك اليوم بالذات . يوم صدور ذلك الفرمان . تحول مئات الألوف من الأقباط الى الدين الإسلامى . خصوصا هؤلاء الذين كانوا قد التحقوا بوظائف الحكومة والذين سكنوا المدينة وتعودوا ارتداء الزى العادى وركوب الدابة كالمعتاد ! وبعد ذلك بسنوات ادعى الفاطميون ان رأس الشهيد الحسين قد انتقل الى القاهرة من عسقلان واحتفلوا بتلك المناسبة احتفالا عظيما . وأقاموا مشهدا فخما لرأس الحسين وانشأوا مسجدا كبيرا . ومنذ تلك اللحظة أصبح الاحتفال بالمولد الحسينى هو أهم وأكبر احتفال دينى فى مصر واستمر كذلك حتى يومنا هذا !

وعندما جاء الخليفة العاضد الى السلطة جاءت ايضا نهاية الفاطميين فى مصر . ويقال ان المعز لدين الله حين دخل مصر طلب بعض المشايخ ان يكتبوا له القبا يتلقب بها خلفاء الفاطميين . فكتبوا له عددا من الألقاب كان اخرها العاضد . وشاعت الصدف ان يكون العاضد هو آخر الخلفاء بالفعل !

وقد دخل الفرنجة مصر فى عهد العاضد واحاطوا بالقاهرة . فاضطر الخليفة الى احراق مدينة الفسطاط وظلت النيران مشتعلة فى المدينة شهرين كاملين ! وعندما استنجد الخليفة بملوك العرب وأرسل خصلة من شعر حريمه مع رسوله . استجاب السلطان نور الدين بن زنكى لنداء العاضد وأرسل له جيشا كبيرا على رأسه البطل صلاح الدين . وقد نجح صلاح الدين فى طرد الفرنجة من مصر . وشنق الوزير شاوير ابن مجير الدين السعدى على باب القاهرة لأنه هو الذى أمر بحرق مدينة الفسطاط . ثم تولى صلاح الدين الوزارة فى عهد العاضد وتلقب بالناصر . وقام بقطع الخطبة فى مصر عن اسم العاضد . فحصل للأخير قهر عظيم . ثم اقدم على الانتحار بأن ابتلع فص الماس فمات من يومه . وهكذا انتهت دولة الانفتاح وكأنها لم تكن . رغم انها استمرت ٢٦٨ سنة واعتدت على الأجهزة والدعاية وجيش كبير من البصاصين ! ولحظة سقوطها لم يرتفع من مصر صوت يدافع عنها . ولم تترك أحدا يدين بمذهبها . لأن الدولة الفاطمية لم تحول شعب مصر من مذهب السنة الى مذهب الفاطمية . ولكنها حولت

الدولة المصرية . فلما سقطت الدولة سقط معها مذهبها وذهبها معا الى
الفناء !

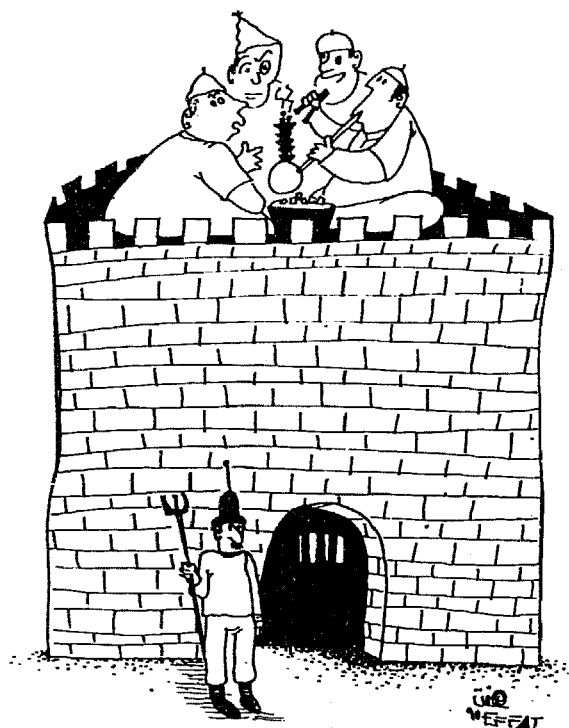
وجاء البطل صلاح الدين ليعيد صياغة الحياة في مصر من جديد ،
وليكشف اللثام عن وجهها العربي لأول مرة ، واذا كان التاريخ يحكى ان
صلاح الدين هو الذى هدم الدولة الفاطمية ، فالحقيقة ان الدولة الفاطمية
هى التى هدمت نفسها ، كانت دولة قصيرة النظر ، تفشت فيها الخرافة ،
وتحكمت فيها الطائفية ، ونخرت في عظامها عوامل الانحلال ، من فساد
ومحسوبية ورشوة ، وعندما استتفى صلاح الدين أموال العاضد بالله ،
اخر خليفة فاطمي ، وجد من بين ممتلكاته اربعة الاف جارية . قيل انه
وطئهن جميعا ، وكان الجيش هو مدخل صلاح الدين الى مصر العربية .
سرح العساكر المجلوبة من العجم والترك والارناؤوط والتركمان ، وأسس
جيشا حديثا قوامه ثلاثة عشر الف جندي عربى ، وسمح لأول مرة
للفلاحين المصريين بدخول الجيش . وقبل ان ينطلق فاتحا بيت المقدس ،
محررا فلسطين من ايدي الافرنج ، كان قد أعاد ترتيب البيت من الداخل .
نشر العدل ووزع الأعباء بالتساوى ، واقام قاعدة اقتصادية متينة مكنته
من الحرب لسنتين طويلة ، واستعان بعدد كبير من المستشارين اصحاب
الفضل والرأى . بغض النظر عن أديانهم . فهم جميعا عرب وهذا يكفى .
الأسعد بن مماتى من اقباط مصر . وابن ميمون يهودى عربى . وبهاء
الدين قراقوش خصى حبشى ، والقاضى الفاضل ، والعالم الدينى الأمين من
عربستان ، وسنقر الاخلاطى من كردستان . وكانت اولى معاركه العظيمة
عند قرية عربية صغيرة هى قرية أم الرشاش (ايلات الآن) وانزل
بالصليبيين هزيمة منكرة . وكان حطين هى معركته الكبرى . وكان جيشه
يربو على المائة الف ، من بينهم سبعون ألفا من أهل مصر . ومن هناك مضى
من نصر الى نصر ، حتى دخل القدس وصلى في المسجد الاقصى . لم يصل
كغيره في حراسة جنود الاحتلال . ولكنه صلى ومن حوله قواده
المنتصرون ، وعساكره المظفرون ، وفوق رأسه تخفق رايات العروبة !
ومات صلاح الدين بعد ما دخل التاريخ من أوسع ابوابه ، ولقى ربه وهو
مقيم في الشام . ومات وهو فوق السبعين ، بعدما حكم ما يقرب من ربع
قرن وستعرف صلاح الدين من سطور قليلة كتبها عنه ابن اياس . نعم
ستعرف لماذا انتصر صلاح الدين ؟ ولماذا انهزم غيره ؟ ولماذا نجح ؟ بينما
فشل الآخرون ! يقول ابن اياس : صلاح الدين خلف من الأولاد سبعة عشر
ولدا ذكرا من صلبه . ولم يخلف في خزانته لاذنبا ولا فضاة ، ولم يخلف

قرية ولا بستانا ، ولا ملكا ولا ضيعة ، وانفق جميع ما فى الخزائن على
التجاريد والغزوات ، حتى فتح البلاد التى كانت بيد الفرنج !
ولكن الحظ النكد ان الملوك الذين جاءوا بعد صلاح الدين لم يكونوا
جميعا من هذا الطراز . كان الملك العزيز بالله العمل الوحيد السيئ
لصلاح الدين ، فهو الذى اختاره ليخلفه على العرش . وكان ضعيفا
متهاكما . اباح الدعارة وتدخين الحشيش ، وتفرغ تماما للحريم والليالى
الملاح ، وحاول هدم الهرم الأصغر ، وانفق فى ذلك أموالا طائلة لاعتقاده ان
تحت الهرم كنزا ثمينيا من الذهب ! وكان الملك المنصور عكس أخيه ، جادا
وفاضلا ، ولكن صراعات السلطة أدت به فى النهاية الى السجن . وجاء
الملك العادل وكان نسخة من أبيه . كانت هوايته العدل والغزو فى سبيل
الله . وكان طويلا جسيما ، مدور الوجه ، شرها فى الأكل ، يأكل الخروف
وحده ، وقد مات مثل أبيه فى دمشق ودفن هناك . وجاء الملك الكامل .
وجاءت عساكر الصليبيين لتغزو مصر نفسها ! تمكنوا من النزول فى بر
دمياط . واحتلوا المدينة وحولوا الجامع الى كنيسة ، وأقاموا حول دمياط
سورا منيعا ! ولكن الملك الكامل الف جيشا من الفلاحين ، وحارب بهم ستة
عشر شهرا حتى تمكن من طرد الصليبيين من دمياط . وانشأ خلال الحرب
مدينة المنصورة أشهر مدينة مصرية بعد القاهرة والاسكندرية وأسوان
وبورسعيد . ولكنها أخف مدن مصر دما ، واجملها نساء ، وأطيبها هواء .
كما جاء فى وصف المؤرخين السابقين ! ثم جاء الملك العادل ولكنه لم يحكم
طويلا ومات فى السجن . ثم جاء الملك الصالح ليضرب مصر والعروبة فى
الصميم . فهو الذى استكثر من الممالك التركمان . فلما ضاقت بهم القاهرة
وصاروا يشوشون على الناس ، وينهبون البضائع من الدكاكين ، بنى لهم
قلعة فى الروضة وأسكنهم فيها وسماهم البحرية ! وفى عهده جاء
الصليبيون مرة أخرى واحتلوا دمياط وزحفوا داخل الوجه البحرى ،
وهب المصريون بقيادة الملك الصالح لمقاتلة الغزاة . ولقد بدأ الرجل
المعركة بمحاسبة المسؤولين عن هزيمة دمياط . وأمر بشنق حاكم دمياط
 وخمسين من الأمراء كانوا موجودين داخل المدينة لحظة نزول الصليبيين
 فيها . وتركوها تواجه مصيرها وغروا تحت جنح الظلام ! ولكن الملك
الصالح مات والمعركة على أشدها . فكنتموا خبر موته عن العسكر وعن
الشعب ، وأرسلوا فى طلب ابنه توران شاه . فجاء على عجل ولكن الاحداث
كشفت عن مركز القوة الحقيقى الذى كان يحكم البلاد من خلف ستار .
وهى الملكة شجرة الدر زوجة الملك الصالح . وكانت هى التى كتمت خبر

موت الملك الصالح وهى التى أرسلت تستدعى ابنه توران شاه . وهى التى حكمت البلاد خلال تلك الفترة ، بين موت الملك وحضور ابنه . وهى التى قادت المعركة ، وكان حولها فرسان الممالك البحرية ، الأمير اقطاي والأمير عز الدين التركمانى والأمير قطز والأمير ببيرس وكلها اسماء ستلمع فى تاريخ مصر والعرب . ولم يكن الممالك وحدهم حول شجرة الدر . كان هناك مصريون ارتقوا الى مرتبة القيادة . السيد البدوى وجماعة السطوحيين واحمد المراكبى الذى هجم بالمقاليع والحجارة على جيش الغزاة (فكانت ساعة تشيب منها النواصي . وقد تاب من هول ذلك اليوم العاصى) وانكسر جيش الافرنج وقتل منهم اثنا عشر الف جندى ، وأسر من ملوكهم سبعة ومن عساكرهم خمسة عشر الف انسان لم يستطيعوا دفع الفدية فوزعهم على الاعيان ووجوه الناس ليقوموا باعمال الخدمة ، هكذا اشتغل الفرنسيون من وراء البحر خدما لدى الفلاحين لأول مرة ! ولكن اغلب هؤلاء اعتنقوا الاسلام وتزوجوا من بنات الفلاحين ، وانجبوا نسلا لعله السبب فى شهرة المنصورة حتى وقتنا هذا ، أما مصر فقد سقطت نهائيا فى قبضة الفرسان ، وابتعدوا الفلاحين عن السلطة وعن الجيش . ودخلت مصر منذ ذلك الحين عصرا اخر مختلفا .

هذا هو عصر الممالك !





الفصل الخامس

العبوة والدمى

وإذا كانت دولة صلاح الدين قد دالت
والت الى صنف الممالك . فإن فترة حكم
صلاح الدين هي التي ينبغي أن نتوقف
عندها لناخذ العبرة ونتعلم الدرس .
فقبل صلاح الدين كان ملوك العرب
يحكمون - تحت ظل دولة الصليبيين -
كان الساحل العربى تحت الاحتلال من اللاذقية الى دمياط . وكانت الأمة
العربية في حالة ترد ، والحكام العرب في حالة عجز ، والمواطن العربى في
حالة يأس . وكان المسافر العربى الذى يريد أن يسافر من مصر الى
بر الشام يدفع رسوم مرور للفرنجة أكثر من مرة على الطريق . وكان عساكر
الفرنجة الذين سئموا العيش في الصحراء يبددون مللهم باحتجاز العرب
المسافرين عدة أيام ، وأحيانا كانوا يضربونهم بقسوة . وفي مرات كثيرة
كانوا يسرقون متاعهم ونقودهم ويعتدون على حريمهم . وكان القتل نصيب
من يقاوم أو يحتج . وهذه المساحة الرهيبة بين تجبر الفرنجة واستسلام
الأنظمة العربية ، بين غطرسة الصليبيين واستكانة الولاة والخلفاء ، بين
التفوق العسكرى الصليبي وهزيمة جيوش العرب . هذا التناقض
الرهيب ، كان لابد أن يكون له رد فعل مساو له في القوة ، مضاد له في
الاتجاه . وجاء رد الفعل هذه المرة من جانب الجماعات الدينية . وكان
تطرفهم رد فعل لضعف الحكومات العربية . وكلما ازداد الضعف من جانب
الحكومة . ازداد البطش من جانب هذه الجماعات . وكلما تمسك
الولاة والحكام بالجبن والذلة ، أبدى هؤلاء ضروبا من الشجاعة بلغت حد
الجنون ، لدرجة أن بعضهم كان يقتل نفسه لمجرد ابداء شجاعته

واستهانته بما يحرص عليه الولاة وكان أخطر هذه الجماعات الدينية ، هي الجماعة التي عرفت باسم الحشاشين ، والتي أخذت لنفسها مقرا ومستقرا في قلعة (الموت) في منطقة جبلية تقع على الحدود الفاصلة بين إيران وأفغانستان . وكانت هذه الفرقة الإسلامية التي عرفت بهذا الاسم قد حددت هدفها بدقة . وهو الاطاحة بالنظم القائمة وتنصيب الامام المختار صاحب الحق في السلطة . وكان منطقتهم بسيطا وشديد الإقناع . ففي رأيهم أن المسئول عن الوكسة والنكسة التي اصابت العالم الإسلامي هي هذه النظم الضعيفة المتهاكمة التي تدافع عن نفسها أكثر من دفاعها عن الأمة ، والتي تحرص على استمرار النظام أكثر من حرصها على حماية الأرض ! ولذلك - في مفهوم هؤلاء - لا بد من العودة الى الجذور والتمسك بالأصول القديمة وأن يتولى أمور المسلمين من هو قادر على صيانتها ، ولا أحد اقدر من الامام المختار ، الذي هو من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام . ولم يكن هذا فقط هو الهدف . ولكن كان هناك هدف آخر . فقد كان على النظام الجديد الذي سيقوم على انقراض النظم المنهارة ان (يملأ الدنيا بالعدل والمساواة) كما هي ممثلة الآن بالظلم والاضطهاد ، ولن يقيم المساواة بين الضعيف والقوى . ويأتي بالسلام والرخاء . وكانت جماعة الحشاشين هي أخطر الفرق الدينية المتطرفة وأوسعها نشاطا . وهي في الاصل فرقة منشقة عن الإسماعيلية . وهي الفرقة الأم التي انجبت أخطر وأعظم الحركات الدينية المتطرفة . واهمها القرامطة . أما مؤسس فرقة الحشاشين فهو شخص يدعى حسن الصباح . ولد في مدينة (قم) وهي نفس المدينة التي عاش فيها وتعلم في مدارسها الامام الخميني . ولكن حسن الصباح لم يكن فارسيا . ولكنه جاء من الكوفة بالعراق . ويقال انه من اصل يمني ، ويقال أيضا انه ينحدر من اصلا ب قبائل حمير القديمة . ليس مهما اصل حسن وقصله . المهم انه استولى هو وانصاره على قلعة الموت . وراح يبث الرعب في أرجاء الولايات العربية الممزقة ويهرب ولاة العرب الذين اصابهم الوهن !

وكان أول ضحايا الحشاشين هو الوزير نظام الملك . وقد قتله رجل من الجماعة بأن طعنه بألة حادة في جنبه بينما كان محمولا على هودج من الساحة الى خيام حريمه .

وقال الحشاش الذي قتله (ان قتل هذا الشيطان هو أول البركة !) وبدأت فرقة الحشاشين تمارس عملها في قتل كبار المسئولين داخل الحكومات العربية (الذين تقع عليهم مسئولية ما جرى في انحاء العالم

العربي من هزيمة وظلم وتسليم امام عدو الله) وكان الوزير المهيب وقائد الجيوش الأفضل هو الضحية الثانية . وقد لقي الرجل مصرعه في القاهرة على يد (ثلاثة رفاق من حلب !) والحق يقال ان زعيم الحشاشين كان شخصية فذة من شخصيات العصور الوسطى . وكل الذين تناولوه من المؤرخين سلطوا الضوء على زهده وتقشفه . وقد عاش نحو اربعين عاما داخل قلعة (الموت) لم يغادرها قط ، ولم يسمح بشرب الخمر ، ولم يتهاون امام أى خطأ . لدرجة انه قتل ولديه بنفسه . عندما ارتكبا أخطاء من النوع الذى يعتبره (لا يغتفر) . ولقد بلغ من سطوة حسن الصباح على مرديه ان كان يأمرهم بالقفز من فوق اسوار القلعة فيقفزون الى الهاوية على الفور ، والأعجب انهم كانوا يشعرون بالمتعة وبالفخر معا ، وهم في طريقهم الى القاع حيث الصخور المدببة ! وكان يختار بنفسه من أعضاء التنظيم من يقوم بمهمة الاغتيال ، ثم يسلمهم خناجر مسمومة مخصصة لهذه المهمة . وقد لفت الحشاشون انتباه أمم الغرب بعد ان اغتالوا طعنا بالخناجر أحد قادة الحملة الصليبية وهو كونراد أوف مدنفيرات أمير مملكة القدس . ولكن الملاحظة الغريبة أن هؤلاء الحشاشين كان هدفهم الرئيسى الأمراء العرب ووزراء دولهم الضعيفة . ويصف الرحالة المشهور (ماركو بولو) مملكة الحشاشين فيقول : انهم يسمون شيخهم في لغتهم (الادين) علاء الدين . وقد قام بتحويل واد عظيم بين جبلين الى حديقة هائلة . وجعل فيها جداول تفيض بالخمر واللبن والماء والعسل . واقام على خدمة الحديقة وروادها نساء فائنات من أجمل نساء العالم ، يجدن العزف على مختلف الآلات الموسيقية . وكان شيخهم يريد ان يوحى لاتباعه ان مايروته في الواقع هو الجنة نفسها . ويبدو أن ما كتبه ماركو ومؤرخو الحملات الصليبية حول الحشاشين قد شد انتباه الأوروبيين تماما الى الدرجة التي تأثروا بهم . حتى ان كلمة اراهابى في اللغات الأوروبية اشتقت من كلمة حشاش ، وصارت كلمة الاغتيال هي نفسها كلمة حشاشين باللغة العربية !

ولكن ما يهمنا في هذا المجال ليس تاريخ الحشاشين وافعالهم . وانما ما فعلوه مع صلاح الدين ، وما فعله صلاح الدين بهم . ولقد انتشر الحشاشون من قلعة (الموت) على الحدود بين ايران وافغانستان ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يجدوا لأقدامهم موضعا الا في سوريا . وهي مسألة غريبة للغاية ولكنها تتكرر دائما - لاحظ العلاقة الوثيدة بين سوريا وايران في الوقت الحاضر - وكانت أول ضربة لهم في سوريا هي قتل

خلف وكان أميرا على مدينة حماة في الغالب ، ثم قتلوا الأمير مودود حاكم الموصل . ثم قتلوا براق بن جندل احد الأمراء المحليين في نواحي بانياس . ولكن كل هذه الحركات كان هدفها الحقيقي هو القاهرة . فقد كان من رأى الحشاشين ان القاهرة هي الرأس ، فإذا فسدت فسد الجسم كله ، وإذا صلحت طاب الجسم واستراح . ولذلك وبعد ان قتلوا قائد الجيوش (الافضل) ضربوا ضربتهم الكبرى واغتالوا الأمير نفسه ، وقام بعملية الاغتيال عشرة حشاشين ، وبعد أن دالت دولة الفاطميين وقامت دولة الأيوبيين على يد صلاح الدين ، وعكف على إصلاح الحال داخل مصر ، حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين مرتين ، باعتباره (واحدا مثل الآخرين) ولأنه قضى على دولة الفاطميين التي كان الحشاشون يطمعون في وراثتها !

ولقد ادرك صلاح الدين خطر الحشاشين بعد هاتين المحاولتين فقر سحقهم . وبالفعل اعد حملة كبيرة وتقدم في اراضى الحشاشين وحاصرهم زمنا ، ولكنه لم يلبث ان فك الحصار وانسحب ! ويقول بعض المؤرخين إن صلاح الدين انسحب خوفا على حياته وان الحشاشين استطاعوا خلع فؤاده بما كانوا يؤدونه من حركات تبلغ حد المعجزات . ولكن هؤلاء المؤرخين كانوا من نوع مؤلفى المسلسلات التليفزيونية هذه الأيام . لأن الحقيقة ان صلاح الدين انسحب بعد ان جاءت الانبياء بهجوم الصليبيين على وادى البقاع . وكان لابد من ان ينسحب لى يؤمن ظهره ، ولأنه لم يكن قد استكمل بناء جيشه بعد . وهو الجيش الذى سيحارب الصليبيين ويهزمهم فيما بعد . وإذا كان الشئ بالشئ يذكر فإن هجوم صلاح الدين على معاقل الحشاشين كان خطأ فادحا . فلم يكن الحشاشون فرقة بقدر ما كانوا فكرة ولو قضى صلاح الدين على هؤلاء الحشاشين الذين هاجمهم لظهر حشاشون كثيرون بعد ذلك . ولكن الخطوة التى فعلها صلاح الدين بعد ذلك كانت هى الحل الوحيد للقضاء على مشكلة الحشاشين . وهذه الخطوة هى بناء جيش قوى من أبناء مصر ، مطعما بفرق عربية ، وعلى رأس الجيش قادة مدربين على الحرب وقادرون عليها . وعندما بدأ زحف صلاح الدين من القاهرة أخذ وقتا طويلا ، ولكنه لم يتوقف إلا في القدس . وعندما دخل القدس وصلى مع جنوده في المسجد الأقصى ، كانت هذه هى بداية النهاية لدولة الحشاشين . لقد ظهر الحشاشون في عصر الانحطاط ، وعلا نجمهم في زمن الهزيمة ، واصبحت كلمتهم هى العليا في أيام الانكسار . وكانت الاسباب التى قامت فرقتهم على اساسها ، أن الأمة في

حالة انهيار ، والنظم العربية في حالة استسلام ، وانها سبب الهزيمة ، وزوالها يؤدى الى تحقيق النصر ، ولكن هاهو صلاح الدين يقلب الموازين ، وهاهو جيشه العظيم يزحف من القاهرة فيفتح القلاع ، وتسقط في يده المدن ، وهاهم أسرى الصليبيين بالالوف مقيدون بالآغال يتهاذى موكبهم فى شوارع دمشق والقاهرة . هاهى اعلام النصر ترفرف من جديد . وهاهى الروح تعود الى الأمة الميتة ، والنبلض يعود الى الشارع العربى الذى كان قد تعفن وفاحت رائحته منذ زمن بعيد . لقد ضرب صلاح الدين الفكرة فى الصميم وانزوى الحشاشين بعدها فى مناطقهم ، وفقدوا بريقهم السابق ، ولم يعد يهتم بهم أحد ، أو يخشاهم أحد ..

وتأكلت فرقة الحشاشين طوال العهد الأيوبي ، فلما قامت الممالك ، كان من السهل على الملك الظاهر بيبرس كسر شوكتهم والقضاء على دولتهم وسحقهم حتى العظام . ولكن الحشاشين الذين حاربهم بيبرس وقضى عليهم ، لم يكونوا هم انفسهم الحشاشين الذين كانوا يحتلون الساحة قبل مجىء صلاح الدين ، أو بمعنى اصح قبل انتصاره !

كانوا مجموعة من الأرمنية ، أشبه بأعضاء حزب الكهرباء هذه الأيام . لقد أفقدهم الانتصار اسباب دعوتهم وأسباب قوتهم ، وكان وجود الصليبيين فى بلاد العرب ، وأخذ الجزية منهم ، وأذلهم على مرأى ومسمع من حكامهم هو السبب الذى جعل الحشاشين فى أعلى مكان ، أما الآن ، فقد انتهى أمرهم ، وكان القضاء عليهم تحصيل حاصل . ونجحت أول حملة قادها الظاهر بيبرس فى القضاء عليهم ، ولم تنجح مئات الحملات التى شنّها ضدهم حكام الأمس ، وإمارات ما قبل الانتصار .

وما أشبه الليلة بالبارحة . لعل السبب فى انتشار الفرق المتطرفة الآن ، هو هزيمة الأمة كلها على يد ثلاثة ملايين كلب يهودى ، استطاعوا انتزاع فلسطين وهضبة الجولان ، ولذلك فآى حرب ضدهم لن تجدى مادام صلاح الدين لم يظهر بعد ، ومادامت الأمة فى حالة انهيار ، بعضها يحارب فى الأذاعة ، وبعضها يحارب بالمشورات ، وبعضها يبحث عن حل وسط على موائد المفاوضات . والأمم تأكل نفسها اذا لم تستطع ان تأكل اعداءها . وهذه الفرق المتطرفة لاتظهر الا فى زمن العجز ، وفى عصور الضعف ، وعندما يصاب الناس بالوهن . وقيل وما الوهن يارسول الله ، قال حب الدنيا . وكراهية الآخرة .

انها حالة تتكرر كثيرا ، وليس من سبيل للخروج منها الا عن طريق واحد واذا أردت ان تعرف الحل ، فاقرا هذه السطور من تانى !





الفصل السادس

وهل عيد الفصح؟

هذا عصر البطولة والمغامرة . ومن هنا
والى حقبة طويلة من الزمن ، سيصبح
السيف هو سيد الموقف . لا مكان هنا
الا للجسور ، ولا قيمة الا للشجاعة ،
وستشهد مصر طرازا من الحكام كلهم
قتلة وكلهم مقتولون . هؤلاء هم الممالك
وسيكون الحكم مهنتهم ، والحرب هوايتهم ، ونهب مصر رسالتهم الوحيدة
فى الحياة . وسيقتل عز الدين ابيك التركمان اقطاى ، وستقتل شجرة الدر
عز الدين وستقتل الحاشية شجرة الدر وسيلقون بجثتها من فوق القلعة ،
وستبقى جثتها فى العراء ثلاثة ايام بلا دفن ، وسيفعل الفاحشة فيها وهى
ميتة بعض اولاد البلد المساطيل ، سيسليون تكة لباسها ، وكانت من
الجريز الهندى ، وفيها جوهرة تزن ربع رطل ، وسيأتى الأمير قطز ليقود
جيش مصر فى واحدة من أخطر معارك العروبة ، وسيبىد جيش التتار فى
عين جالوت بعد ما كان التتار قد خربوا مدينة بغداد وأحرقوها وسحلوا
الخليفة العباسى ، وأسرفوا فى القتل ، حتى صار نهر دجلة فى لون الدم .
ولكن بيبرس البندقدارى سيقول الأمير قطز ويتسلطن على عرش مصر ،
وسيمتد حكمه لسبعة عشر عاما تعقب فيها التتار حتى أخضعهم لحكمه ،
وفرض عليهم الجزية ، وزوجوه بنت الخاقان الأعظم ومات الظاهر بيبرس
وترك عشرة من الملوك يقبلون الأرض بين يديه وبعدما نقل الخلافة من
بغداد وأقامها فى مصر .

وأصل الحكاية أنه عندما إجتاح التتار بغداد وقتلوا الخليفة العباسى
شر قتلة ، فر عدد من العباسيين الى داخل الصحراء ، ولجأ بعضهم الى

مضارب العربان . ثم انقطعت اخبارهم بعد ذلك . فلم يعثر احد لهم على اثر . ولكن فجأة وفي عهد الملك الظاهر بيبرس وفي عام ٦٦٠ هجرية على وجه التحديد . جاءت الاخبار بان شخصا من بني العباس يسمى الامام احمد بن امير المؤمنين الظاهر بامر الله . وهو عم الخليفة المستعصم بالله واخو الخليفة المستنصر بالله . وكان قد لجأ الى بعض العربان في الصحراء واستقر هناك لمدة أربع سنوات ثم حضر الى مصر فجأة مع جماعة من العربان . فلما بلغ الملك الظاهر بيبرس وصول الامام احمد الى ناحية القرين بالشرقية خرج في موكب مهيب لاستقباله فلما وقعت عين الملك الظاهر على الامام احمد . نزل عن فرسه . ونزل الامام احمد عن فرسه هو الآخر . وتعانق الرجلان وسط هتافات الجند ورجال الحاشية . وكان الامام احمد اسمر اللون من أم حبشية وعليه مهابة . فركب مع الظاهر بيبرس وقصدا مدينة القاهرة فدخلوا من باب النصر . وشق الموكب مدينة القاهرة الى القلعة . وكان يوما مشهودا ، وجاء الناس من أنحاء مصر كلها ينظرون الى الخليفة العباسي ويرحبون به . ونزل الامام بقاعة الأعمدة بالقلعة وعقد الظاهر بيبرس مجلسا ضم القضاة ومشايخ العلم ومشايخ الطرق الصوفية والاعيان وسائر الأمراء وأرباب الوظائف . فلما اكتمل المجلس جلس الظاهر بيبرس بين يدي الامام احمد على الأرض وعلى ركبتيه . وكان يتصدر المجلس شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام . وشهد الحاضرون جميعا بأن الامام احمد هو بن امير المؤمنين الظاهر بامر الله وعم امير المؤمنين المستعصم بالله فلما ثبت نسب الامام احمد . بوبع بالخلافة وتلقب بالمستنصر بالله . ثم قام من فوره بمبايعة الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة وعهد اليه بامر البلاد الشامية والمصرية . وما سوف يفتح على يديه من بلاد الكفار . فلما كان يوم الجمعة التالي ، خطب الخليفة العباسي بنفسه من فوق المنبر . بجامع القلعة ، وهو يرتدى السواد شعار العباسيين ، فخطب خطبة بليغة جاء فيها (الحمد لله الذي اقام لبنى العباس ركنا وظهرنا) وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا . أيها الناس اعلموا أن الامامة فرض من فروض الاسلام ، ولا يقوم الجهاد الا باجماع كلمة العباد . فما سبيت الحرم الا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء الا بارتكاب المآثم ، ولو شاهدتم أهل بغداد حين دخل التتار دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا النساء والأطفال والرجال ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم وذاقوهم العذاب الأليم ، فارفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعلت الضججات من ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ

خضبت شبيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبيكائه . وأما السلطان
الظاهر بيبرس ركن الدنيا والدين ، فقد قام بنصرة الامامة ، وشرذ جيوش
الكفر ، فبادروا عباد الله الى شكر هذه النعمة . وأخلصوا النية تنصروا ،
وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، والحرب سجال ، والعاقبة للمتقين . وأنا
استغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين (وبعد يومين خرج السلطان
الى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة ، وجلس على كرسى وحوله الأمراء ،
ثم وقف القاضي فخر الدين بن لقمان كاتم السر وقرأ على الأمراء تقليد
ال خليفة للسلطان . فلما فرغ من ذلك ارتدى السلطان زيه الرسمي ، وهو
جبة سوداء وعمامة سوداء ، وطوق ذهب فى عنقه ، وفيد ذهب فى رجليه ،
وسيف ذهب يتدلى من جنبه . ثم ركب على فرس أسود له بوت أبيض ،
ودخل القاهرة من باب النصر ، وشق المدينة من باب النصر ، ومشت امامه
الأمراء حتى القلعة ، وبعد أسايح قليلة من إقامة الامام فى القاهرة . أخذ فى
تجهيز نفسه للعودة الى بغداد ونزعها من يد التتار ، وأمدد السلطان
وجهزه بكل ما يلزم لاسترداد بغداد من أيدي التتار ، وأرسل معه خمسمائة
مملوك وعشرة طواشية وأعطاه مائة وستين ألف دينار من الذهب العين .
ونزل الامام أحمد على رأس الحملة ومعه السلطان بيبرس ، وسار جيش
الامام الى دمشق أولا حيث تخلف السلطان هناك ، ومضى الامام أحمد
بجيشه الى بغداد وعندما وصل الامام أحمد المستنصر بالله بجيشه الى
مكان يسمى بالأنبار خرج اليه القائد المغولى قرايغا فى عسكر كثيف ، فحمل
الامام على عساكر التتار فكسروهم كسرة قوية . فلما دخل الليل هجم التتار
على عساكر مصر وأحاطوا بهم وأبادوهم عن آخرهم فلم ينج منهم أحد ،
ونهبوا ما معهم من قماش وأموال وغير ذلك ، أما الامام أحمد المستنصر
بالله ، فلم يظهر له أى أثر بعد ذلك ويقال أنه قتل فى المعركة تحت جنح
الليل ، وبعد ذلك بسنوات جاءت الأخبار بوصول شخص آخر من بنى
العباس يقال له الامام أحمد أيضا ، وهو من أولاد الخليفة المسترشد بالله
بن المستظهر بن المقتضى بن محمد الذخيرة ، فلما وصل الى المطرية ، خرج
السلطان والأمراء لاستقباله ، ثم صنعوا له نفس الموكب الذى صنعوه
للخليفة أحمد السابق ، وشق موكب الامام والسلطان القاهرة الى القلعة ،
ونزل الامام الجديد بالبرج الكبير على يمين القلعة ، فأقام أياما ، ثم عقد
السلطان مجلسا ثانيا حضره مشايخ العلم ومشايخ الطرق الصوفية
والأعيان والقضاة وأرباب الدولة ، واثبتوا نسبه ، ولقبوه بالخليفة
الحاكم بأمر الله . كان هو الآخر أسمر اللون وأمه حبشية ثم أنزله

السلطان في مناظر الكباش التي أنشأها أحمد بن طولون ، وكانت مطلة على نهر النيل ، وأجرى عليه راتبا يكفيه في كل شهر . وتقرر أن ينقش أسم الخليفة مع اسم السلطان على الدنانير والدرهم ، وأن يخطب باسمه مع اسم السلطان في كل جمعة ، ويدعى لهم على المقابر ، وأن يقدم اسم الخليفة على اسم السلطان في الدعاء وسمح للخليفة بالصعود الى القلعة مرة كل شهر ليهنئ السلطان بالشهر الجديد ! ! ويقول الحافظ ابو شاما (لما تم نقل الخلافة من بغداد الى مصر ، ظهرت مصر على سائر البلاد ، وتشرف قدر سلطانها على سواء من العباد ، وصارت مصر مسكن العلماء والفضلاء والزهاد ، وعلا فيها قدر السنة ، واختفت منها البدعة ، وهذا سر في بنى العباس ، اذا حلوا بأرض تشرفت بهم على غيرها من البقاع !) وفي ظل الخليفة الجديد ، أخذت مصر بنظام جديد للقضاة . حيث لم يكن بها من قبل غير القاضى الشافعى فقط ، فصار القضاة أربعة . قاضى الحنفية وهو صدر الدين بن سلمان ، وقاضى المالكية شرف الدين بن السبكي ، وقاضى الحنابلة شمس الدين بن نعمات ، وقاضى الشافعية تاج الدين بن بنت الأعز . وعاشت الخلافة في مصر ، يتعاقب عليها خليفة بعد آخر ، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون غضب على الخليفة المستكفى بالله بن الربيع سليمان ، فنفاه الى قوص ، وكان السبب أن الخليفة المستكفى بالله لجأ اليه رجل من عامة الناس يشكو اليه من أمر قام به السلطان . فكتب الخليفة على ورقة أمرا الى السلطان يخبره بالمثل بين يديه أو يرسل من ينوب عنه . فلما قرأ السلطان الورقة ، أهمل شأنها وأصرها في نفسه . ثم أمر بنفى الخليفة بعد عدة أشهر من هذه الواقعة ، ومات الخليفة بعد ثلاث سنوات . وكان المستكفى بالله قد أوصى بالخلافة الى ولده أحمد من بعده . وشهد بذلك قاضى قوص وبعض الشهود . ولكن السلطان رفض الاعتراف بالامام أحمد خليفة . وبقيت مصر بلا خليفة مدة أربعة أشهر ، واقتصرت الخطبة على الدعاء للسلطان دون الخليفة . وبعد أربعة شهور من موت الخليفة المستكفى ، استدعى السلطان شقيق المستكفى بالله الامام إبراهيم ، وولاه الخلافة على حين غفلة . وتلقب بالوائق بالله . ولكن العامة أطلقت عليه لقبا آخر هو المستعطي بالله ، لقذارة نفسه وطمعه ، وعندما مات السلطان محمد بن قلاوون تولى السلطنة السلطان محمد بن أبى بكر فعزل الخليفة إبراهيم ، أو المستعطي بالله ، وتولى الخلافة الامام أحمد بن المستكفى الذى مات بالمنفى ، وتلقب بالحاكم بأمر الله .

وبقيت الخلافة العباسية مستقرة في مصر ، حتى دخول السلطان ابن عثمان الى القاهرة بعد كسرة الجيش المصرى في معركة مرج دابق ، ثم هزيمة السلطان طومان باى على أبواب القاهرة . وكما نقل السلطان العثماني كل الصناع المهرة وأصحاب الحرف الممتازين من القاهرة الى استانبول ، نقل معه ايضا الخليفة العباسى . واستمرت الخلافة العباسية فترة من الزمن في استانبول حتى أعلن السلطان العثماني نفسه خليفة على المسلمين .

وهكذا حكمت الخلافة العباسية قرونا عديدة من بغداد فترة ، ومن القاهرة فترة ، ومن استانبول فترة . وكان الخلفاء العباسيون في واقع الأمر ولفترة طويلة من الزمان ، مجرد رموز لا حول لهم ولا طول . ليس لهم من الأمر شيئا الا قبض الرواتب والصعود مرة كل شهر الى القلعة للتشريف بمصافحة السلطان !

والظاهر ببيرس ترك دنيانا وخلف سيرة عطرة ، لا يزال المطرب يتغنى بها حتى هذه اللحظة ، ولا يزال الفلاحون في قرى الريف المصرى يتحمسون لبطولاته ويهللون لفتوحاته ويكون لخبر موته وكأنه مات وشيعت جنازته بالأمس ، وجاء من بعده عدد من الملوك لم يترك أحد منهم أثرا حتى وثب الى السلطة ملوك أسرة قلاوون من المماليك البحرية ايضا ، ولقد حكم أحدهم مصر لمدة نصف قرن معا ، وهو في الخامسة والسبعين وعزل من السلطة مرتين ، ولكنه تمكن من استرداد عرشه وتفنن في ابتداع الوان جديد من التعذيب لم يكن للناس عهد بها من قبل وقيل إنه سجن بعض المماليك في القلعة ومنع عنهم الطعام والشراب لمدة ثلاثة ايام ثم دعاهم الى وليمة فاخرة ولما كشفوا الغطاء عن المائدة وجدوا اطباقا مليئة بالذهب . وقال لأعدائه لقد تأمرتم ضدى من أجل هذا فكلوا حتى تشبعوا وقد مات احدهم على الفور ، وجن جنون الآخرين وماتوا في سجنهم بالقلعة وظل القتل هو دستور الدولة بعد ذلك ، فقتل الملك المظفر الملك الكامل ، وقتل الناصر ابو المحاسن الملك المظفر ، وكان الملك الناصر ابو المحاسن هو آخر ملوك قلاوون وقد قتل هو الآخر وألقيت جثته في البحر ولكن نهاية الملك الأشرف شعبان كانت مختلفة عن كل النهايات . فقد وثب عليه ممالك يريدون قتله ، فهرب منهم الى بيت امرأة تدعى بنت مشطول فلما كان الليل ذهب بنت مشطول الى المماليك وعرفتهم مكانه ، فقبضوا عليه وعروه من ثيابه وأركبوه حماره بالمقلوب ، وغطوا رأسه بقلنسوة وطلعوا به الى القلعة ، وبعدها استجوبوه . خنقوه بوتر وكسروا ظهره ووضعوه في قفة

والقوا به في بئر مهجورة ، وبموته دالت دولة المماليك البحرية وقامت دولة المماليك الجراكسة ، وأقامها الملك الظاهر برقوق .
ولقد حكم مصر مرتين وتصدى لقتال تيمور لنگ ، ولقد أنفق في حروبه للتتار مالا لا يحصى حتى اضطر في النهاية الى الاستدانة من تجار القاهرة وكتب على نفسه إيصالا بذلك .

غير أن هذه الدولة الفقيرة التي اضطرت الى الاستدانة من التجار لتحارب التتار ، ستتحول بعد فترة قصيرة الى واحدة من أغنى دول الأرض ، وستصبح دولة المماليك الجراكسة هي ممر التجارة العالمية الوحيدة ، وستصبح عملتها هي العملة الصعبة في العالم وتأتي بعدها عملة البندقية ، وستدفع المراكب جمارك عن حمولتها في ميناء جدة لخزينة السلطان ، وستصبح الاسكندرية في عهد الجراكسة هي اهم مدينة على سطح الأرض وستشهد عصرا ذهبيا . كان المرء يستطيع ان يشتري اى شئ من أسواقها حتى طائر النعام وحيوان الفيل ودم الغزال وخصية القرد ، واتسع ملك برقوق حتى صار يخطب باسمه في تبريز العجم وفي بردين وفي سنجار وفي دوركان وفي نوسن والقيروان وفي أرض الروم في أرزنكان وكان له في كل يوم في رمضان عشرون بقرة تذبح وتفرق على الفقراء واتصل به السلطان العثماني مراد وحذره من عساكر تيمور لنگ وطلب منه طبيبا ودواء لالتهاب المفاصل . وقد جهز له الملك برقوق قافلة عليها أدوية ومعها عدد من أكابر الأطباء ، وترك الملك برقوق ابنه الناصر فرج في حكم مصر ، وقد ناصبه الأمراء العداء ، ولكنه استطاع القضاء عليهم جميعا وقد ازدادت مصر في عهده هيبه وزاد ملكها اتساعا . ولكن اين كان الشعب من كل هذا الذي يجرى على أرض مصر ؟ وهل خلت مصر الا من الأمراء والمماليك والعساكر ؟ هل مات الشعب ؟ والجواب : هل تموت الرياح ؟ وهل يموت النهر ؟ استطاع المماليك ان يعزلوا شعب مصر عن السياسة وأمور الحكم ، كانوا يستدعونهم لحظة اشتعال المعركة ويصرفونهم فور انتهائها . ويجردونهم من سلاحهم ثم يسلبونهم بعد ذلك أموالهم بالضرائب المتعددة والفرد المختلفة . وما تبقى لدى الفلاحين كان يسطو عليه البدو يخطفونه من أيديهم . كان المماليك هم السلطة . فهم السلطان والأمراء والوزراء وحكام الأقاليم يعاونهم بعض الموظفين من اقباط مصر ، وكان هؤلاء على الفلاحين أشد وطاة من المماليك انفسهم ، وإن كان ذلك لم يشفع لهم عند المماليك ، فقد مات أغلبهم في الحبس . ولقى بعضهم مصرعه على الخازوق ، واضطر البعض الآخر الى الهرب والاختفاء بعد ما فقد أمواله وغلमानه وحريره لتصبح بعد هروبه حلالا بلالا للسلطان .

وبجانب المستوظفين الأقباط ، كان يوجد أيضا بعض أصحاب الفضيلة المشايخ وهؤلاء كانوا يضمنون العيش ما داموا أنهم أفتوا بما يرضى السلطان . فإن فعلوا عكس ذلك ، كان مصيرهم الطرد من الخدمة ، والصياغة في الشوارع ، وربما الموت جوعا وتشريدا في بلاد الله . ولكن الفئة القليلة منهم هي التي لقيت هذا المصير ، والأغلبية العظمى منهم كانت تجد بين نصوص الشريعة السماح ما يرضى حكام الأقاليم ونواب الولايات . وهؤلاء عاشوا في سعة وبحبوحه وتقلبوا في بلهنية العيش . ومات بعض المشايخ وفي حوزته من الجوارى مائة جارية ومالا يحصى من الغلمان ! أما الممالك فكان كل واحد منهم يعتبر من أثرياء العصر ، وكان في وسعه أن يفعل كل شيء وأى شيء إلا أن يغضب السلطان . فاذا غضب عليه السلطان فقد كل شيء في لحظة ، ومات شرمينة أو قضى حياته كلها في الحبس ، هذا إذا كان حسن الحظ وكان المملوك إذا مات في حادث أو استشهد في معركة ، يجلس على باب قصره أكبر ممالিকে فيقوم بتصريف الأمور نيابة عن سيده . فاذا كان شابا ووسيدا ووقع في عين الحريم موقعا حسنا ، ترك مكانه عند الباب واستقر به الحال في الداخل ، ويحل محل سيده في كل شيء يتزوج الحريم ويملك الجوارى ويحوز كل النفائس والجواهر والأموال . وكان المملوك يموت عادة في شرخ الشباب . فهو لا يعرف لعبة الا سيف ، ولا يعرف لغة إلا القوة ، وإذا عاش مملوك حتى سن الأربعين كان ذلك مصادفة ، وإذا امتد به العمر الى سن الخمسين كان ذلك أعجوبة . وكان البدو يأتون بعد الممالك فهم لا يشتغلون بالزراعة ، وهم لا يستقرون في مكان فيسهل حكمهم ، وهم أيضا يجيدون صناعة الحرب ، وكانوا يقطعون الطريق على الممالك في رحلة الحج ، ويهاجمون الممالك كلما نشبت المعارك بين الممالك بعضهم البعض ، وكانوا ينزلون بهم الخسائر الفادحة ، وينهبون منهم الأموال الطائلة . لذلك كان لكل مملوك من ذوى النفوذ جماعة من البدو يخامر معها ويعتمد عليها ويحميها عند السلطان .

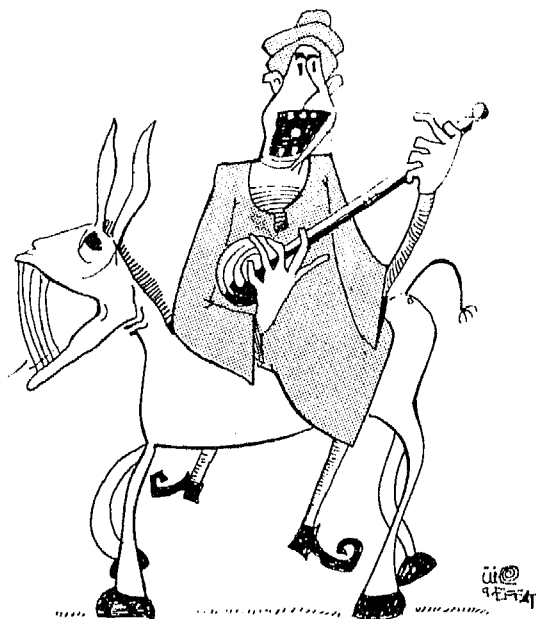
أما الحرافيش أو عامة الناس في المدينة فاقترص دورهم على التشنيع على السلطان ونشر النكت ضده . فاذا قام الممالك على مملوك منهم وطاردوه وطردوه خارج القاهرة كبس العامة بيته فنهبوه وخطفوا متاعه وحريمه ، وأحيانا كانوا يهدمون داره وينهبون حتى حجارة الدار ! وعندما نزل الأمير برقوق عن العرش في ولايته الأولى ، وخرج متخفيا من باب القرافة ، هجم عليه الحرافيش وكادوا يقتلونه لولا أنه عمد الى حيلة ذكية ، فبدر عليهم

الجنّيات الذهبية والقطع الفضية ، فانشغلوا بها عنه ، وبذلك نجا من قتل محقق وقيل إنه نثر عليهم من الجنّيات الذهبية مائة ألف ولكن المالك بالرغم من شجاعتهم الفائقة ، لقوا الهزائم التاريخية في معارك مصيرية . ليس بسبب عدم الكفاءة في الحرب ولكن بسبب تكاليهم على السلطة والخلافات المستمرة بينهم ولقد كاد الملك الناصر فرج ان يوقع الهزيمة بالقائد تيمور لذك عند أبواب دمشق . وفي الليلة نفسها التي بعث فيها تيمور لذك يطلب الصلح من السلطان ، خامر عليه بعض الأمراء وتسحبوا من معسكره تحت جنح الظلام وانطلقوا نحو مصر وقد عزموا على خلع السلطان فلما بلغه نبا انسحاب المالك وعودتهم الى مصر . انسحب هو الآخر بجيشه تاركا دمشق تحت رحمة المغول !

وكانت النتيجة احتلال دمشق وجرى عليها ما جرى على بغداد أيام هولاكو فقد احتلوا الجامع الأموى وشربوا الخمر فيه وضربوا الطنبور ولعبوا القمار ! وكانوا يقبضون على الرجل في دمشق ويقولون له : هات ما عندك من المال ، فيقول : ما عندى شيء من المال ، فيضرب ضربا شديدا حتى يخرج بنسائه وعياله ، فتوطأ نساؤه وبناته بين يديه وهو يشاهد ذلك بعينه . وكانوا يعلقون الرجل من أصبع قدميه في سقف الدار ثم يشعلون النار تحته حتى يموت من ذلك العذاب . ولقد أسر المغول كل أهل دمشق وساقوهم في حبال ثم أحرقوا دمشق . وقد أتى الحريق على جامع أمية وعلى غالب جوامع المدينة حتى أقفرت دمشق من زخرفها ونقوشها . لا ترى فيها دابة تدب أو طائرا يهب ، سوى جثث قد احترقت وصورا في الثرى قد تعثرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ، ومغنما للكلاب ونهبها ف (إنا لله وإنا إليه راجعون) لعظم هذه المصائب وشناعة هذه النوائب !

وقبل أن يرحل تيمور لذك عن دمشق ، جمعوا له أطفال المدينة ، فكانوا ما بين ابن خمس سنين وشهر وشهرين ، فركب تيمور لذك ، فلما أتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتألمهم ، ثم قال للعسكر ، سوقوا عليهم بالخيول ، فماتوا أجمعين . ثم نظر لمن حوله وقال : أنا غضب الله في أرضه ، يسلطنى على من يشاء من خلقه .

ولكن ، أين كان سلطان مصر بعد انسحابه من دمشق ؟ كان خلف أسوار القلعة يقتل المالك دفاعا عن عرشه الذى طمعوا فيه ! وما أغرب الحياة !



الفصل السابع

الحياة يا حسانين

وها هي مصر العظيمة تسقط
مجهدة .. في النهاية بسبب حروب
المماليك في الداخل والخارج ، لقد جفت
البقرة الحلوب . وراح السلطان يتلمظ
وهو يتلفت حوله عن ضرع في البقرة لم
يجف لبنه بعد ! واكتشف السلطان
قنصوه الغورى ان هناك اوقافا المسلمين يمكن الاستيلاء عليها .. ولكن
قامت قيامة رجال الدين ضد هذا الاجراء ووقف شيخ الحنفية بقوة ضد
السلطان واغليظ له في القول . وثار السلطان وامر بالقبض عليه ، ولكنه
اضطر إلى الافراج عنه بعد أيام لكي يقضى على الثورة التي عمت القاهرة .
لقد بدأت الثورة داخل حارات المدينة المقفلة ، وفي أسواقها المزدهمة ،
ووصلت الى كل ركن من أركان العاصمة . لقد سئم الناس هذا الذل الذي
بلا نهاية ، وهذا الهوان الذي بلا حدود ! وقام مطرب شعبي يدعى على
أبو رحاب ابن بلد من القاهرة . قام يغنى ضد المماليك وضد السلطان .
وانذرته السلطة مرة ، ثم قبضت عليه مرات . وعندما لم يتوقف على
أبو رحاب قبض عليه طومان باى الأول وضربه ضربا مبرحا ، وعراه من
ثيابه وشهره في القاهرة على حماره والمنادى يصيح أمامه (هذا جزاء من
يتكلم فيما لايعرف ، ويتدخل في ما لايعنيه) ! لعل على ابورحاب مطرب
عصر المماليك هو الأب الشرعى للشاعر الشعبى أحمد فؤاد نجم ، الذى
سخر من السلطان واصبحت أيامه سجننا متصلا . ويا ألف حسرة على
مصر الحبيبة وصلت في عهد قنصوه الغورى الى قمة الغنى وغاية السفة

وفي اقصى الشمال لمملكة قنصوه الغورى ، كانت هناك عيون ترقب التفاحة
التي فسدت وتوشك على السقوط ، كان قد ولى الحكم فى دولة (الروم)
شاب طموح هو السلطان سليم شاه الاول . وقد زحف بجيوشه الفتية نحو
حلب . فلما سمع سلطان مصر نبأ الغزو العثمانى نفخ فى النفير . وخرج فى
جيش كبير يضم الألوف من الفلاحين والبدو والمماليك . وعندما دخل
السلطان حلب أرسل الأمير مغلباى داود أرسكين إلى السلطان العثمانى
سليم ليعرف مراده على وجه التحقيق . ولكن رسول السلطان ذهب الى
الناحية الأخرى وغاب . وقضى السلطان وقته فى حلب وقد انشغل فكره على
رسوله الذى غاب وعسكره الذين دبّت الفتنة بينهم ، فثارت الحرب أكثر
من مرة بين المماليك الجراكسة وكتائب العربان وجيش الفلاحين . ولكن
رسول السلطان قنصوه الغورى ظهر فجأة وهو فى انحس حال ، يزنط أقرع
على رأسه . وعلى بدنه ثياب عتيقة ممزقة وقد ركب على اكديش هزيل ،
وحكى الرجل - الذى ينم مظهره على الهوان - عن الهول الذى لاقاه عند
السلطان سليم كيف حلقوا له لحيته وتلقوا له حاجبيه وأجبروه على حمل
مخلفات الخيل فوق رأسه ، وأخيرا ، أطلقه من أسره وقال له : قل لأستاذك
يلاقينا فى مرج دابق !

وكانت مرج دابق تبدو كمسرح مهجور عندما دخلها سلطان مصر
بجيشه ، فأقام فيها الى يوم الأحد خامس عشر من رجب حين ظهرت جيوش
بنى عثمان . فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة وعلى كتفه طير ، وعن
يمينه أمير المؤمنين . وكان حول السلطان أربعون مصحفا شريفا فى أكياس
حرير ، وجماعة من الفقراء خلفاء سيدى أحمد البدوى وسيدى أحمد
الرقاعى . وكان قائد الميمنة سيباس بك وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب
وعندما بدأ القتال قاتل المماليك قتالا شديدا وكسروا العسكر العثمانى
كسرة مهولة . فهم عساكر الروم بالهرب . وانشغل عساكر المماليك بالسلب
والنهب ، وتوغل بعضهم داخل الاعداء حتى وصلوا الى وطاق السلطان
سليم . ولكن فجأة انهزم خاير بك دون سبب وهرب بعساكره من المعركة .
فالتف عسكر العثمانى حول جيش السلطان قنصود . وكان خاير بك على
اتصال بالسلطان سليم . وقد ولاد اقليم مصر بعد ذلك . وسماه العامة
« خاين بك » وعندما تحقق قنصود الغورى من خيانة خاير بك نادى فى
عسكره : « يا اغوات هذا وقت المروءة . هذا وقت النجدة » . ولكن صوته
لم يصل الى أحد . وتحول الجيش الى فلول . انسحب المماليك فى البداية .
ثم ولى العربان الفرار . ونجا من استطاع الإفلات من عسكر الفلاحين .

وسحق الآخرون فلم يعد منهم أحد . وعندما أيقن السلطان الغورى من الهزيمة ، هتف فى حنى شديد : « الخيانة يا مسلمين » . ثم أصابه شلل مفاجئ فسقط من فوق حصانه ، وقيل تفتت كبده فتقيا دما . ومات من شدة القهر ! ودخل السلطان سليم حلب ، وأرسل مندوبا عنه ليتسلم قلعة حلب ، واختار رجلا اعرج اعور اقرع « فعد ذلك أهانة ملك مصر . وسبحان الذى بيده الملك ! »

ولكن اذا كانت حلب قد سقطت ، واذا كانت الشام قد سقطت ، واذا كان عسكر ابن عثمان قد وصلت الى غزة ، فان القاهرة لم تزل صامدة لم تستسلم .. اختار المماليك طومان باى الثانى سلطانا على مصر ، وحددوا مهمته « وقف زحف ابن عثمان والقضاء عليه » !

ولكن مصر كانت قد سقطت قبل ذلك ، أسقطها المماليك انفسهم وقتلوا روحها ، ولم يستطع طومان باى ان يصنع شيئا اكثر من انه دخل عدة معارك رهيبية عند قليوب وفى الريدانية وفى بر « انبابة » ولكن الهزيمة لحقت بجيشه فى النهاية ، ودخل سليم الاول مدينة القاهرة وأباحها لجنوده . وظلت فى شوارعها جثث عشرة آلاف قتيل من أهلها لم يتيسر دفنها ! ودخلت مصر فى غيبوبة طويلة .

أما طومان باى فقد هرب لدى بعض العربان ، فسلموه للسلطان سليم شاه وعندما التقى الرجلان ظل السلطان طومان باى رافع الرأس مصرا على انه سلطان مصر ولا احد سواه ! وكان جزاؤه الشنق على باب زويلة حيث اعتاد السلاطين شنق اللصوص والشرار . ولكن التى تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باى ، ولكنها كانت فى الحقيقة جثة مصر .

ولقد ماتت قرونا طويلة قبل ان يكتب لها البعث من جديد ! وجاء السلطان العثماني ودخلت مصر فى سرداب التاريخ ، وتحولت من سلطنة الى ولاية ، وخيم عليها الظلام واصابها الضمور ! واذا كان السلطان العثماني قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقي على المماليك انفسهم ، ولم يلبث هؤلاء ان تزيوا بزى العثماني ورطنوا بلسانه ، واشتغلوا تحت رايته !

ولم يمض وقت طويل حتى هبوا من جديد يناصبون السلطان العداء ويخرجون على طاعته . وكان السلطان فى أغلب الأحيان يبعث بتجريدة لتأديب العصاة ، فيفر هؤلاء الى جهات الصعيد والوجه البحرى ، ويقيمون دويلات صغيرة وحكومات مستقلة ، وسيلقى الفلاحون العنت والارهاق وسيذوقون الامرين ، وسيضطرون الى دفع الضرائب مرتين . مرة

للحكومة المركزية ومرة للحكومة المتمردة على سلطة الدولة . وستشهد مصر هجرات داخلية تنشبت منها العائلات في أنحاء مصر هربا من جور الحكام وعسف المماليك . وسيتحول الأزهر والى فترة طويلة من الزمان من بؤرة للثورة الى وكر للجريمة . وسيطلق المماليك على انفسهم لقباً جديداً هو المماليك المصرية ، اى الذين ولدوا في مصر ، فهم مماليك صحيح ولكنهم مصريون أيضاً ، وسيحددون السلطان العثماني باعتبارهم أصحاب البلاد الأصليين . وستعرف مصر نوعاً من انواع القتل لم يكن لها به عهد من قبل ، هو الموت على الخازوق ! وكان لدى العثمانيين جلادون مهرة يعرفون كيف يدقون الخازوق في بطن الرجل .. من دبره الى فمه .. دون ان يخترق مكاناً قاتلاً بحيث يبقى المخزوق جالساً على الخازوق عدة ايام وهو بين الحياة والموت . يعاني أشد انواع العذاب ، دون ان تمتد له يد بكوب ماء او كسرة خبز ، أو حتى كلمة طيبة ، وعرفت أيضاً عقوبة النقي من مصر الى الإستانة ، وكم من المماليك العصاة لقوا حتفهم في المنفى على يد زبانية السلطان ، وكان من حق هؤلاء وضع اليد على املاك المماليك المغدورين وحريمهم ! وقويت شوكة قبائل العرب الرحل في العهد العثماني ، وبرزت على الساحة المصرية كقوة سياسية يعمل لها ألف حساب ، واصبحت من الجرأة بحيث كانت لا تتردد في الهجوم على العاصمة نفسها أو قطع طريق القوافل أو نهب بعثة الحج ! واشتهر من هؤلاء أبو الشوارب شيخ عرب شلقان . وهو نفسه الذى انحدرت منه عائلة الشواربي الشهيرة ، والتي اطلق اسمها على الشارع الشهير في القاهرة ، أول شارع رائد في سياسة الانفتاح والانشكاح التي اصبحت سياسة مصر الرسمية بعد ذلك !

وكان السلطان العثماني اذا رغب في اغلاق ملف مصر . سلمها للمماليك يحكمونها باسمه شرط ان يدفعوا الخراج المطلوب والجزية المتفق عليها ، وفي هذه الفترات كانت مصر تعاني الافلاس وتصل الى حافة الخراب . لأن العثماني كان يطلب مبلغاً كبيراً ، وكان المماليك يفرضون ضعف المبلغ المطلوب . ليعطوا للسلطان وليأخذوا لأنفسهم . ولذلك ستشهد مصر مجاعات متتالية ، وسيحصدها الطاعون اكثر من مرة . وسينهبها العثماني والمملوك وقبائل البدو وعساكر الانكشارية ، وسيتفشى فيها الحشيش واللواط . وستغرى حتى ملك النوبة بالهجوم عليها .. وستنطفئ شعلة مصر المقدسة . وستخمد نارها . ولن تجد في مصر طوال العهد العثماني أدبياً له وزن . وسيصبح الأدب مهنة الجزائريين والبقالين والزيتيين

والخياطين ، وستسمع عن الأديب الجزار والأديب الزيّات والأديب
الخياط ، وسيقول احد هؤلاء حكمة عندما سألوه ، وكان يعمل جزارا ثم
هجر الجزارة واشتغل بالأدب ، سألوه عن الفرق بين الجزارة والأدب
فأجاب ساخرا : عندما كنت جزارا كانت تمشى ورائى الكلاب ، وعندما
إصبحت أديبا سرت امشى وراء الكلاب !! فنان واحد سيلمع وسط هذا
الظلام الدامس ، أديب ساخر من الصعيد اسمه ابن سدون المصرى جاء
من منفوط ليدرس بالأزهر ، يصدر كتابا غاية فى السخرية وقمة فى
الابداع . كتابا اسمه « رسائل ابن سدون » . ولكن أحدا لن يلتفت إليه فى
زمانه ، ولكن التاريخ سينصفه بعد ذلك بزمان طويل !!

□ □ □



الفصل الثامن

طبول الثورة

وجاء عابدى باشا وتولى ولاية مصر .
وفى يوم توليه أرعدت السماء وأمطرت
مطرا غزيرا وكسفت الشمس . وتشاءم
الناس ، وكانوا على حق . وبعد توليه
بأيام زحف القبالي الى بنى سويف ،
فصعد المشايخ وعلى رأسهم الشيخ
العروسى الى الباشا وكلموه فى ذلك . فأرسل مكتوبا مع الطبرى الى الأمراء
القبالي « انكم طلبتم الصلح مرارا ، واجبناكم بما طلبتم واعطيناكم
ما سألتم ، ثم بلغنا أنكم رجعتم وزحفتم الى بنى سويف ، فما عرفنا أى
شئ عن هذه الحال ، والقصد انكم تعرفونا عن قصدكم وكيفية حضوركم ،
ان كنتم نقضتم الصلح والا فلترجعوا الى ما حددناه لكم مما وقع عليه
لاتفاق » ومرا اسبوع على خطاب الباشا الى الأمراء القبالي ، ثم تلقى الرد ان
كان صلحا فليكن كاملا ونقعد معكم بالبلد عند عيالنا ، ونصير كلنا اخوة ،
ونقيم ثارنا من ثاركم ودمنا فى دمكم وعفا الله عما سلف ، وان لم ترضوا
بذلك فلتستعدوا للنزال ، انها الحرب اذن ولكن الباشا لا يريد الحرب ،
ولا يقوى عليها ، والممالك لاتستطيع مهاجمة القاهرة ولا تقدر عليها ،
وحصل وقف حال وضيق فى المعاش ، وانقطاع للطرق وعدم امن ووقوف
العربان ، ومنع السبل وتعطيل اسباب وحسر فى الأسفار برا وبحرا ، ولجا
العامة والتجار للمشايخ ووسطوهم لدى الباشا ليعمل على انهاء هذه
الحالة - حالة اللاسلم واللاحرب - فذهب المشايخ وصعدوا الى القلعة

وتكلم الشيخ العروسي : لماذا لاتخرجون للحرب ؟ فقد ضاق الحال بالناس . ولايقدر احد من الرعايا ان يذهب الى بحر النيل . وقربة الماء بخمسة عشر نصف فضة . وحضرة الباشا منشغل ببناء حيطان ومنتاريس وهذه ليست طريقة المصريين في الحرب وانما طريقته المصادمة وانحصار الحرب في ساعة اما غالب او مغلوب . ووعده الباشا بأنه سيخرج للحرب في القريب . ولكنه لم يخرج من القلعة قط . وظلت الأحوال على ما هي عليه خراب وغلاء وانقطاع سبل . وفجأة ارسل الباشا في طلب عرب الهنادى وعرب البحيرة فحضروا بجمعهم واخلاطهم وانتشروا في الجهة الغربية من رشيد الى الجيزة ينهبون البلاد ويأكلون الزرع ويضربون المراكب في البحر ويقتلون الناس . حتى قتلوا في يوم واحد في النجيلة ثلاثمائة انسان . ورجف الناس وغلقوا أبواب البيوت على عيالهم واصبح الرجل لا يامن على الخروج من باب النصر ولم يتوقف زحف العربان ، فنهبوا اسواق امبابة وعروا التجار واستولوا على ما معهم من نقود وبضائع . وبينما الناس غارقة في الهجوم حتى الأذان ، اذا بالأمير حمزة كاشف يلقي القبض على رجل رومي يبيع الجواهر وعذبه أياما وقلع عينيه وأسنانه وقطع انفه وشفتيه وأطرافه حتى مات . واشيع ان سبب ذلك هو وقوع علاقة غرامية بين الجواهرجي الرومي وزوجة حمزة كاشف وقيل انه استاذن الوالي في فعلته فأذن له . ثم حضر الى القاهرة الف عسكرو رومي وعليهم كبير يدعى اسماعيل باشا ، وقدم الباشا للوالي ألف قرش من جناب السلطان لمساعدة المشايخ والمجاورين ليقرأوا البخارى للسلطان ويدعوا له بالنصر . ولكن هدية السلطان لم تكن كافية فزادها الى أربعة الاف قرش . وبالرغم من قراءة البخارى ، فقد زادت الكوارث والمحن والطاعون والكروب المختلفة ثم انشغلت القاهرة عن همومها برجل هندي مقعد يجلس على مقعد من الفضة ، وكان قد حضر من استانبول بعد ما زار السلطان واهداه هدية قيمة ، من بينها طائران يتكلمان اللغة الهندية ، وكان مع الرجل الهندي فرمان من السلطان يخول الاستعانة بمن يشاء من العساكر في اقاليم مصر مقابل أجر ، ولكن الناس امتنعوا عن ذلك وكل من دخل فيهم وسموه بعلامة في جبهته لا تزول . ثم دخل القاهرة ذات صباح رجل من الحجاج يكاد يكون عاريا تماما . وأخبر الناس أن العرب قطعوا طريق الحج ونهبوا قافلة الحجاج وفيها أموال كثيرة للغاية خاصة ستة الاف جمل ما بين قماش وبهار وبن وبضائع ، واسروا النساء وفسقوا فيهن ثم عروهن وتركوهن عرايا في الصحراء !

وتدهورت الأحوال أكثر . وازدادت القاهرة خرابا حين وقعت الواقعة في بولاق بين بعض المغاربة والعساكر القلونية . وسبب ذلك ان المغاربة نهوا العساكر عن شرب الخمر نهارا جهارا في رمضان فرمى عليهم العسكر بالبارود . فظن المغاربة خلفهم في المراكب واشتبكوا معهم . ومسكوا من مسكود . وذبحوا من ذبحوه ورموهم في البحر ، وقطعوا آجال المراكب ورموا صواريتها . وحصلت ضجة في بولاق تلك الليلة وأغلقت الدكاكين ، فلما بلغ الوالى ذلك اغتاض وأرسل الى المغاربة يأمرهم بالانتقال من بولاق . فانتقلوا الى القاهرة وسكنوا في الخانات . فلما كان ثانى يوم ، نزل الأغا والوالى وناديا في الاسواق على المغاربة بالخروج من المدينة الى جهة العادلية . ولكن المغاربة رفضوا الأمر ، واشتروا سلاحا وعزموا على القتال . فلما تحقق الوالى الضعيف من عزمهم نادى عليهم بالامان وسكنت الفتنة .

ولكن القاهرة المضطربة لم يغمض لها جفن ! ورحل عابدى باشا عن مصر بعد ما ذأقت الويلات على يديه . وتولى منصب الوالى اسماعيل كتحذا حسن باشا فعقد هدنة مع الأمراء القبالي ، وتنازل لهم عن حكم الصعيد من منفلوط إلى أسوان . واستقر إبراهيم بك في منفلوط وعمر فيها دارا . وصعد مراد بك إلى الصعيد الأعلى ، وتفرق ممالئهم في الجهات وسكنت الطرق ووصلت إلى ساحل بولاق المراكب وعليها الغلال ، وعادت الأحوال الى سابق عهدها في القاهرة . وكانت الهدنة بين الوالى والمماليك وبالا على المصريين فقد تفرغ الوالى لحلب مصر بكل طريق وأى طريق . ووجه على الناس قباج المماليك وأغلظ الملتزمين . وراحوا يكبسون بيوت الناس وبايديهم البنادق ، ويسمعونهم قبيح القول ، ويتعرضون للنساء . وتولى مصطفى كاشف المراكب أمر قلعة طره ، وراح يستولى على كل سفينة صاعدة إلى قبلى أو هابطة إلى القاهرة ولا يفرج عنها الا بمال . وانشغل الوالى بشراء المماليك وأكثر منهم ، واسكنهم في الجيزة وبولاق ومصر عتيقة ، واغدى عليهم الرواتب والجامكيات . وكانوا خليطا من الرعاع بأشكالهم المختلفة وطباعهم المنحرفة . وعدم أديانهم ، وانعكاس أوضاعهم ، واستعملهم من أول وهلة في الفروسية ولم يدر بهم في آداب ولا معرفة دين ولا كتاب . ثم جمع عشرات الصنائع المهرة وعكف على صنع عدة سروج للسلطان بعبايات مزركشة . وهى مع السرج والقصعة والقربوجى مرصعة بالجواهر والبروق والذهب والركابات واللجامات والبلامات والشماريخ والسلاسل كلها من الذهب البندقى المكسر ، والرأس والرشمات

كلها من الحرير المصنوع بالمخيش وفيها تعاليق المرجان والمعادن ، صناعة
بديعة وكلفة ثمينة ! واشترى كثيرا من الأواني والقدور الصينى الاسكى
معدن وملاها بأنواع الشرابات المصنوع من السكر المكرر . كشراب
البنفسج والورد والحماض والصندل المطيب بالمسك والعنبر وماء الورد ،
والمربات الهندية ، مثل مربة القرنفل ومربة جوز الهند والبسباسة
والزنجبيل والطايل . وأرسل ذلك الى السلطان مع الخزينة ومعها عدة
خيول من الجياد وأقمشة هندية وعود وعنبر وطرائف وكميات من الأرز
واللبن ، وماء الورد المكرر وغير ذلك . ولم يسبق لأحد فى ما تقدم من أمراء
مصر أن أرسل مثل ذلك ولم نسمع به ولم نره فى تاريخ ! ولكن فى عهد هذا
الباشا العاكف على استرضاء السلطان بالعنبر وماء الورد وقعت حادثة
فريدة ، سيكون لها اثر يلىغ فى المستقبل ، وان كانت لم تلفت نظر الباشا
ولا المماليك والأعوان ومروا عليها جميعا مرور الكرام . فقد حدث ان
تعددت المظالم فى القاهرة على يد ناظر الحسبة ، وقام احمد أغا - وهو اسم
ناظر الحسبة - بالتعدى على أهل الحسينية . والقاء القبض على عدد منهم
وكبس بعض بيوت الحى ونهبها ! ثم أرسل أعوانه للقبض على احمد سالم
الجزار شيخ البيومية فنار الناس على أتباع الأغا وانضم اليهم نفر كثير من
أهل الجهات المجاورة وهتفوا بسقوط الوالى والأغا وحضروا الى الجامع
الأزهر ومعهم طبول وقفلوا أبواب الجامع وأبطلوا الدروس ، وأرسلوا
عريضة للباشا يطلبون فيها عزل الأغا . ولكن الباشا رفض طلب الثائرين
وهدهم بأقسى العقاب . ولكن ذلك لم يردعهم ، وازدادت ثورتهم . وكثرت
جموعهم وهددوا بالزحف الى القلعة . وصار احمد أغا يركب بجماعة من
الأرنؤوط ويشق القاهرة ليغيظ العامة . ولكن الأحوال توترت أكثر
وانضم الألوف الى الثوار . وتوقفت الحال فى القاهرة تملأ . وبدأ الناس
يشترى السلاح . ومشوا طوائف يأمرون التجار بإغلاق الدكاكين ،
واحتلوا مداخل القاهرة ، وأغلقوا أبوابها الكبرى ، واستمرت الحال على
هذا المنوال مدة أسبوع كامل توقفت فيه حركة البيع والشراء ، وقل
المعروض من الخبز فى الأسواق . فلم يجد الباشا بدا من عزل الأغا ، وجاء
الأغا الجديد بنفسه الى الجامع الأزهر واسترضى الثائرين ووعدهم بإصلاح
الحال . وهدأت الفتنة فى القاهرة ، ولكنها خلفت فى الساحة قوة جديدة لم
يكن لها حساب من قبل وسيكون لها ألف حساب فى المستقبل . قوة هى
صاحبة المصلحة الأولى والأخيرة ، وهى صاحبة الأرض والبلاد ، قوة
اسمها الشعب !

وكان الباشا قد انتهى من عمارة قصره الجديد ونقل اليه أعمدة ضخمة من المساجد القديمة ، وغرس في جانبه بستانا عظيما جلب له أشجارا من الهند واليمن ، وتمورا من العراق . وظن أن الدنيا قد دانت له ، ولكنه لم يكد يستقر في قصره الجديد حتى جاء مرسوم من السلطان بعزله عن ولاية مصر وتعيين والى المورة عزت باشا مكانه . نزل الباشا من القلعة الى بولاق ، وأراد السفر في يومه . ولكن الأمراء منعوه من ذلك ، فلما أغلظ لهم القول طردوا البحارة من المراكب ومنعوه من الرحيل حتى يتم حسابه وتسديد دينه الذى في عنقه . وقال له أحد المماليك ، « عيب يقول الناس الباشا هرب ومعه أموال مصر » ! وظلت المراكب راسية بمناعه وحريمه على ساحل بولاق حتى حضر الوالى الجديد وتمت محاسبته . فطلع في ذمته مائتا كيس دفع بعضها صكوكا وبعضها نقدا وسدد بعضها من مناعه . ولكن الباشا الجديد اكتشف خطأ في الحساب فأمر بإيقاف مركب الباشا السابق في عرض النيل ، وبالفعل أوقفوه وحصلوا منه على الباقي في ذمته ثم سمحوا له بالسفر . وقد أمر الباشا الجديد بعزل كل الذين عينه سلفه . واستخدم اتباعه بدلا عنهم .

ثم جاء الطاعون وتساقط الناس بالمئات في الشوارع ..



ولقد كانت خطة الباب العالي شق
معسكر المماليك الى معسكرين . ومملكة
الحرب . اى ان تقوم الحرب وتستمر ،
وبشرط ان يكون طرفاها ممالك
وممالك ، وكانت هذه هي الوسيلة
الوحيدة لكى يستتب الامر
للسلطان ، ولكيلا لاتعود مصر لترفع رأسها . أو تجرد سلاحها من جديد !
والأغرب من ذلك أن المماليك بلعوا الطعام ، وبدأت الحرب ولم تهدأ .
ووقف الباب العالي يغذى النار المشتعلة بالوقود ، وينفخ فيها حتى
لاتخمد ، واقتصر دور الباب العالي على نصرة الضعيف على القوى حتى
يضعف ، ومساندة الضعيف حتى يقوى ! ولذلك سيعلن الباب العالي
مباركته لابراهيم بك ومراد بك لحظة دخولهما القاهرة ، وسيطارد حليف
الأمس ، وسيكبس دوره ويستصفى أمواله ويسبى حريمه ، وسيجبره على
حياة المنفى والهوان ، ولم يكن هذا المصير الرهيب الذى انتهى اليه
المماليك بسبب حذق الباب العالي أو ثمرس رجال الدولة فى السياسة وأمرور
الحكم ، ولكن كان بسبب اخر هو سقوط المماليك أخلاقيا وانحلالهم الذى
بلا نهاية وعدم تمسكهم بمبدأ أو عهد أو هدف ، الا التهليل بأقصى طاقة
وغرف الأموال بلا حساب . وركوب الدنيا بلا غاية ! ولقد كان محمد أغا
البارودى خير نموذج للماليك . وكان مملوكا لابراهيم كتحذا القازدغلى ،
اصطفاه وجعله خازن داره وزوجه من ابنته فلما مات سيده طلق ابنته
وتزوج من أرملة استاذاه . وانضوى تحت جناح حسن كتحذا الجربان
وقربه اليه وخلع عليه الخلع السنية . وأتابه فى تدبير شئون الكتخداية .

فعند ذلك اشتهر ذكره ونما أمره واتسع حاله ، وانفتح بيته وقصده
الناس وتردد اليه الاعيان . ووقف في بابه الحجاج واتخذ له ندماء من
أولاد البلد اللطفاء يقضى معهم حصه من الليل ينادمونه ويسامرونه .
وماتت زوجته فزوجه مراد بك إحدى عشيقاته ، وصار بذلك صهرا لمراد بك
فازداد شهرة ومكانة . فلما وصل حسن باشا واضطر مراد بك الى الهرب من
القاهرة الى الصعيد ، انضم محمد اغا البارودى الى حسن باشا واسماعيل
بك أعدى أعداء مراد بك والد خصومه ! وعينه اسماعيل بك أمينا
للمخازن . فعظم شأنه وارتفع قدره وطار صيته في الاقاليم المصرية ، وكثر
الازدحام في بابه ، وجبيت اليه الأموال ، وصار الايراد اليه والمصرف من
يده .. ثم تزوج ابنة سيده الجديد . وحضر حفل زفافه الوالى والأمراء
والاعيان ، وأرسلوا اليه الهدايا العظيمة . ودفع النقود جميع التجار
والنصارى والكتاب القبط ومشايخ البلاد ذهابا عينا فجمع من وراء ذلك
مالا له صورة ! وسار في زفة العروس موكب مهيب اشترك فيه جميع أرباب
الحرف والصنائع من كل طائفة ، وذلك خلاف الملاعب والبهلوانات
والرقاصين والجنك والأغوات والحريم والملازمين والسعاة والجوابشية .
واستقلت العروس عربة من صناعة الأفرنج . وكانت زفة غريبة الوضع
لم يسبق لها مثيل ! وكان يقبل الرشوة ، وإذا احب انسانا قضى له
أشغاله كائنه ما كانت من غير مقابل . ولما مات اسماعيل بك وتولى الامارة
عثمان بك طبل ، استوزره ايضا وسلمه قيادة في جميع أموره ، وصار هو
الذى يحكم مصر ، وعثمان طبل لا يدرى ما يدور حوله .
ولذلك سيعاود البارودى اتصاله بصهره ومخدومه القديم مراد بك ،
وستبادل معه الرسائل ، وسيمهد له الطريق للعودة الى القاهرة على جثة
مخدومه الجديد عثمان طبل . وبالفعل ، لولا خدمات البارودى ومساعدته
لما استطاع مراد بك ان يرى القاهرة في حياته . لقد مهد له الطريق وسهل له
الامر . حتى تمكن أخيرا من دخول القاهرة وطرده عثمان طبل ، بعدما
هدموا داره واغتصبوا حريمه واستصفوا امواله . ولكن البارودى لم
يتسع أمامه الوقت لممارسة لعبته المفضلة ، خيانة اسياده القدامى
والركوع على اقدام اسياده الجدد . ولم يجد الفرصة ليأكل على المائدة
الجديدة . فقد اختطفه الموت فجأة قبل ان يدخل مراد بك القاهرة بليلة
واحدة !

وأيا كانت نهاية البارودى . فالواقع ان البارودى لم يكن نشازا بين
صنف المماليك . لقد كان نموذجا للمملوك في ذلك العصر المنحط . وكان

البارودى هو كل الممالك . وكان كل الممالك بارودية . ولذلك كان محمد الألفى هو صحوة الموت بالنسبة إليهم . وكانت مذبحه القلعة مجرد تحصيل حاصل . فقد ذبحوا انفسهم بانفسهم من قبل . وانتهت أيام الممالك العظيمة المجيدة التى مازالت اصداء رنينها تتردد فى سمع الزمان حتى اليوم . ولم يعد من ممالك الأمس الا حفنة من الأرزقية والحرامية ، وفقدوا كل اسلحة العصر الذهبى . ولم يعد فى ايديهم الا سلاح الغدر ! وهكذا فوجيء الممالك وهم غارقون لأذانهم فى معارك جانبية وحروب داخلية ، بنزول جيش بونابرت على شاطئ الاسكندرية كان فتى الثورة الفرنسية الذى دحرج تيجان أوروبا فى الوحل وداس عليها بالاقدام قد تفتحت شهيته للشرق ، وكان عليه ان يسلك الطريق نفسه الذى سلكه الاسكندر الأكبر من قبل ، وكانت مصر هى البوابة وهى الجسر الى عالم الشرق الساحر الغامض المتخضم بالخرافة والكنوز !

ولم يشعر احد فى الاسكندرية بجيش بونابرت الا بعدما احاط الجيش بالمدينة . ولم تستمر طويلا مقاومة الاسكندرية ثم انتهت الحرب بتجريد الأهالى من السلاح ، واعطاء الأمان لمن يريده ثم مفاوضة المشايخ على ترتيب البيت من الداخل وتنظيم شئونهم ! ولم تسمع القاهرة نبأ الغزو الا بعد أيام ، وشمخ مراد بك بائفه احتقارا لشأن العساكر الفرنسية وتمادى ابراهيم بك فاقسم بالطلاق انه سيدوس بقدميه أى عساكر اجنبية تجرؤ على دخول مصر ! ثم راحوا يصادرون أموال الناس ، ويستولون على ما يحتاجون اليه بدون ثمن ، ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة وبرز بخيامه ووطاقه وأخذ معه كميات من البارود والمدافع وسار مع العسكر الخيالة ، وأغلبهم من الأروام والمغاربة . الى الاسكندرية وخلال خروج جيش مراد بك خلت الأسواق فى القاهرة وكثر الهرج بين الناس وانقطعت الطرق ، واخذت الحرامية فى كل ليلة تكبس على اطراف البلد ، ولم يعد احد من سكان مصر يشاهد فى الطريق بعد المغرب !

وحدثت رجة عظيمة فى القاهرة حين وردت الأخبار بأن الفرنسيين وصلوا الى دمنهور ورشيد ، ووقع فى ايدي السلطان منشور اصدارته القيادة الفرنسية . « بسم الله الرحمن الرحيم » لا إله إلا الله . لا ولد له ولا شريك له فى ملكه ، من طرف الفرنسية المبنى على الحرية والتسوية ، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنسية بونابرتة يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد والصناجق الذين يتسلطون بالديار المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنسية ويظلمون تجارها ،

فحضر الآن ساعة عقوبتهم ، واضربنا من مدة عصور طويلة هذه الزمر
الممالك المجلوين من بلاد الأباترة لايوجد في كرة الأرض كلها ، فأما رب
العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم ، يا إله
المصريين ، لقد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينك
فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليك
الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى أكثر من الممالك أعبد الله سبحانه
وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ، وقولوا لهم ان جميع الناس
متساوون عند الله ، وان الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل
والفضائل والعلوم فقط وأما هؤلاء الممالك فما الذى يميزهم من غيرهم
حتى يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء احسن فيها ، من الجوارى
الحسان والخيول العتاق والمسكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية
التزاما للممالك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين
رعوف وعادل ورحيم ، وبعوته تعالى من الآن فصاعدا لايبأس احد من أهالى
مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ،
قالعلماء الفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الأمور ، وبذلك يصلح حال
الأمة كلها ، وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان
الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من الممالك .
طوبى للذين يقدعون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين .
فاذا عرفونا بالاكتر تسارعوا الينا بكل قلب ، لكن الويل للذين يعتمدون على
الممالك فى مجاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ، ولا يبقى
منهم اثر .

وكان هذا هو بيان الجنرال بونايرت الى شعب مصر . ولقد كان بيانا
للتمويه والخداع ، أو هكذا أرادته عبقري قادة زمانه بونايرت . غير انه
كان بالنسبة لمصر هو أول الطريق نحو البعث الجديد . وكانت أول صرخة
فتحت عيون المصريين على حقائق بديهية . ان بلادهم كانت عظيمة وهكذا
ايضا ينبغى أن تكون . ان الممالك مفتصبو حق الأمة وان المصريين أحق
بحكم مصر من هؤلاء المجلوين من بلاد الأباترة . والجركس ! وان المدن
كانت عامرة والأموال كانت وافرة ، وما أزال هذا كله الا الظلم !
نصيحة قبلت لشعب مصر ما أحوج شعب مصر اليها فى هذا العصر
الذى عاد فيه الممالك فى غفلة من الزمان ليجثموا على صدر مصر !
ولم يقبث الممالك أمام نابليون بونايرت .. وانتهزم مراد بك بعد مناوشة
بسيطة ، وولى هاربا ، ولكن سرعان ما تجددت المعركة عند امبابة على

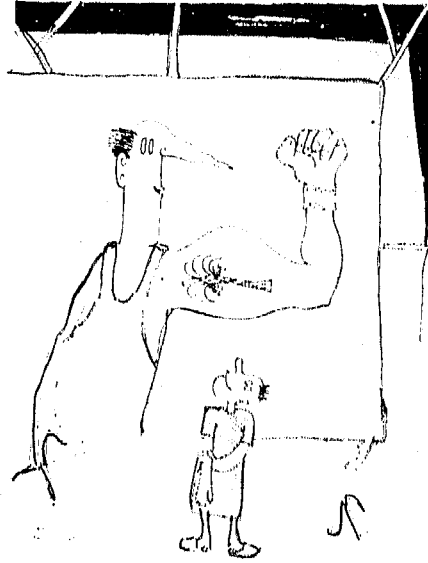
الضفة الغربية من نهر النيل في مواجهة القاهرة .. وبعد وقت قصير من نشوب المعركة فر مراد بك و ابراهيم بك ومماليكها تاركين الممالك الصغاليك يواجهون مصيرهم ، واضطر هؤلاء الى ارتداء الزعابيب ، زى الفلاحين ، واندسوا بين الناس في القاهرة ، وأغلبهم هاموا على وجوههم في أرجاء الريف .

وكان يوما حالك السواد في تاريخ القاهرة ، راجت إشاعة في المدينة بان الهدف من الغزو الفرنسى هو إحراق العاصمة وذبح المسلمين . واندفع اثرياء الناس الى الهروب خارج القاهرة حاملين معهم ما خف وزنه وغلا ثمنه . وبيع الحمار الهزيل بعشرين دينارا . وبلغ بهم الخوف الى الحد الذى القى بعضهم نفسه في النيل سابحا ضد التيار هاربا الى حلوان . وخرجت الناس بملابس النوم . وضل اطفال عديدون خلال الزحام فلم يعثر لهم على أثر : ولم يبق في القاهرة الا فقراء القوم ، وهؤلاء سلموا أمرهم لله ، وخضعوا لتصاريف القضاء والقدر ! وشحت الأقوات في الأسواق وغلا سعرها ، وانقطعت الطرق ، وكبس اللصوص اطراف المدينة ، وهاجمت قبائل البدو فلول جيش مراد بك عند قرية ترسا في الجزيرة وأشبعوهم قتلا وتذبيحا واستولوا على بركهم وقماشهم وأسلحتهم وشلحوهم من ملابسهم ، ودخل القاهرة عدد من الناس في زفة هائلة . وقيل انهم كانوا أسرى في جزيرة مالطة ، وقد أطلقهم نابليون من سجنهم . لأنه مسلم ويحب المسلمين ويكره اعداء الله . وراحوا يتحدثون في المدينة عن حسن اسلام نابليون وشديد تقواه !!

وأخيرا ، دخل جيش نابليون القاهرة « في حسن ترتيب وجميل نظام . وقد رفعوا الرايات ودقوا الطبول واطلقوا الشنك والقنابر . ونهبوا على جميع الأهالى بالتبليغ عن الممالك الهاريين . واندروا كل من يخفى مملوكا بأشد أنواع العذاب . وعادت الحياة الطبيعية الى القاهرة بالتدريج . واخذ الهاربون يعودون الى المدينة التى هجروها خوفا من عسكر الفرنسيين . وفتحت الأسواق وامتألت الحواصل بالغلال . وجاء الفلاحون الى القاهرة عبر النهر يبيعون الجبن والفواكه والدجاج . وذهب المشايخ وقابلوا « جناب صارى عسكر » وخرجوا من عنده وهم في غاية من السرور والانشراح ! وأصدر الفرنسيون فرمانات بإبطال كل النظم المعمول بها في البلاد . وأبطلوا المظالم والفرد ورقموا البيوت والحارات . وأجبروا السكان على تسجيل المواليد والموتى . ورسوموا بتعليق قنديل أمام كل بيت . وفرضوا على السكان كنس الأرض ورشها أمام دورهم . واضدروا

مطبوعة بلسانهم وسموها الغازينة . وانتشر العسكر الفرنساوية في
العصاري على شواطئ النيل وحول بركة الأزبكية وتضاعف عدد القحاب
في هذه الأماكن . وتردد عليها أصحاب الملاعب ، وانشئت الخانات
والخانات لتدخين الحشيش . وانقطعت أخبار الممالك ، وتجرا الناس على
من تبقى منهم في المدينة . وصار المملوك يخشى الفلاح ويتودد لابن البلد ،
وسبحان مغير الأحوال !
واطمان نابليون واستقر ، فقد بدأ الخطوة الأولى على طريق حلمه
الكبير !

□ □ □



الفصل العاشر

المرزوقة والأبطال

ولكن الذى يلفت النظر فى أول ثورة
شعبية فى تاريخ مصر المعاصر هو
ما جاء فى وصف الجبرتى بأن الذين
دبروها وأشعلوها هم « حشرات
الحسينية وأوباش الناس » ! ولكن
« العلماء » الأفاضل على حد وصفه
ذهبوا الى صارى عسكر واعتذروا اليه فقبل عذرهم ، ورفع الرمى عنهم .
« أما أهل الحسينية والعطوف البرائية فإنهم لم يزالوا مستمرين وعلى
الرمى والقتال ملازمين حتى خانهم المقصود وفرغ منهم البارود » .
انها ثورة شعبية بكل معنى الكلمة . دبرها واشعلها أولاد البلد وخانها
بعض المثقفين وكان يطلق عليهم العلماء ، وهم الذين هتفوا لحظة وقوع
القنابل على رؤوسهم ياخفى الألفاظ نجنا مما نخاف . ثم ذهبوا الى صارى
عسكر واعتذروا له فقبل اعتذارهم ورفع الرمى عنهم . انه موقف يتكرر
دائما على مر التاريخ الحديث انه موقف المشايخ الذين زاروا الأعتاب
الملكية فى وقت كانت فيه القاهرة تشتعل بالثورة ضد الملك وبطانته وأعلنوا
اكتشافهم المثير بأن الملك فاروق من أحفاد النبى محمد !

ولكن ليس هذا على اى حال هو موقف المثقفين جميعا . ولكنه موقف بعض الانتهازيين والأرئقية وعملاء السلطة والذين يتاجرون بشرف الكلمة في سوق البغاء ! فحتى ثورة القاهرة الأولى قادها « بعض المنقسمين الذى لم ينظر في عواقب الأمور ولم يتفكر انه في القبضه ماسور » ! كما قادها السيد بدر . وهو تاجر مصرى كان من وجوه الناس في القاهرة . وقد تعقبته السلطة بعد إخماد الثورة واتهمته بأنه كان ضالعا مع المماليك ويعمل لحسابهم . ولكن السيد بدر فر تحت جنح الليل إلى الشام فذهب العسكر الفرنساوية داره ومتجره . ولم يقدر للسيد بدر أن يرى القاهرة بعد ذلك . فقد مات في المنفى ودفن في مقابر مجهولة ! أما بعض السادة العلماء الأفاضل فقد اصدروا بيانا للأمة « نصيحة من كافة علماء الاسلام بمصر المحروسة نعوذ بالله من الفتن . ما ظهر منها وما بطن ونبرا الى الله من الشبايع في الأرض بالفساد . نعرف أهل مصر المحروسة أن الجعيدية واثرار الناس هم الذين حركوا الشرور بين الرعية والعسكر المسلمين ونهبت بعض البيوت . ولكن حصلت الطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة الى الفقراء والمساكين . ولولاه لكانت العساكر احرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر . فعليكم الا تحركوا الفتن والا تطيعوا أمر المفسدين . ولا تسمعوا كلام المنافقين . ولا تتبعوا الاشرار ولا تكونوا من المفسدين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب من أجل ان تحافظوا على أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم ودينكم . فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى الملك لمن يشاء ويحكم بما يريد .

ونخبركم أن كل من تسبب في هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد . ونصيحتنا لكم الا تلقوا بأيديكم الى التهلكة . وانشغلوا بأسباب معيشتكم وأمور دينكم . وادفعوا الخراج الذى عليكم . الدين النصيحة والسلام . وكانت هذه ضربة خنجر في ظهر ثوار مصر . والدين النصيحة ! هكذا كان في الماضى عندما كان نصيحة للحياة وللحرية والكرامة والموت في سبيل الله . ولكنه أصبح في زمن مشايخ فرنسا نصيحة للذل والرق وطاعة المحتل الغاصب . ولا إله إلا الله ! وعلى ذكر المثقفين الأرئقية والمثقفين الأبطال . لابد لنا من وقفة لنلقى نظرة على التاريخ المكتوب . للشيخ عبدالرحمن الجبرتي . لقد مر المؤرخ الذى يحتل الصدارة عند بعض المثقفين على الأبطال مرور الكرام وسبهم ولعن سنسفيل جدودهم . ووصفهم بأنهم بعض المنقسمين الذى لم ينظر في عواقب الأمور ولم يفكر انه في القبضه ماسور .

ولكن من هم هؤلاء الثوار الأبطال الذين تجاهلهم المؤرخ ومر عليهم مرور الكرام ؟ من هم ؟ وماذا فعلوا ؟ وكيف ذهبوا الى رحاب الله في صحبة شهداء عين جالوت ومرج دابق ؟ احدهم هو العالم الصالح الفاتح الشيخ عبدالوهاب الشبراوى الشافعى الأزهرى وكان حسن الانقاء سلس التقرير ، جيد المحافظة ، مقبلا على شأنه ، ولم يزل ملازما على حالته حتى اتهم في اثارة الفتنة وقتل في القلعة شهيدا بيد الفرنسييس . ولم يعرف له قبر !

ومنهم ايضا الامام العمدة الفقيه العلامة المحقق الفهامة المتمكن عين اعيان الفضلاء الأزهرية الشيخ أحمد بن موسى بن أحمد بن محمد الببلي . وكان فيه انصاف زائد وتؤدة وحكمة ومروءة . وتوجه الى الحق ولديه اسرار ومعارف وقواعد وعلم . وقد ولى مشيخة رواق الصعايدة ، وله مؤلفات عديدة ومفيدة منها « مسائل كل صلاة بطلت على الامام » . وقد ابلى بلاء حسنا في ثورة القاهرة الاولى وسجن في القلعة وقتل شهيدا بيد الفرنسييس ولم يعرف له قبر !

وكان على رأسهم ايضا الشاب الصالح والنبية الفالح الفاضل الفقيه الشيخ يوسف المصيلحى الشافعى الأزهرى . حفظ القرآن والمتون وحضر دروس اشياخ العصر ، وكان مهذب النفس كريم الذات حلو الناطقة لطيف الطلعة خفيف الروح ، واتهم في حادثة الفرنسييس وقتل مع من قتل شهيدا في القلعة ، ولم يعرف له قبر !

وفي قائمة الشهداء نقرا اسم الشيخ اسماعيل البرادى الشافعى ، وكان شديد النباهة واللسانة والسلطة والتداخل ، واشترك في ثورة القاهرة ، وتولى قيادة قطاع كبير يمتد من المشهد الحسينى الى باب الفتوح ، وقد أصيب برصاصة في المعركة . ونفذ فيه حكم الاعدام وهو جريح وجروحه تنزف دما ، وكان ثابت الجنان رابط الجاش . وهتف في وجه العسكر الفرنسييس : « الله ينصر الاسلام ويخزى اعداء الدين » !

وسنجد بين الشهداء اسما له رنين ، هو السيد محمد كريم . بالرغم من عدم وجود اى صلة بينه وبين ثورة القاهرة فإنهم أعدموه مع زعمائها .. وبالمناسبة ! فلقد بدأ السيد كريم حياته قبانيا يزن البضائع في حانوت في الاسكندرية ، وعنده خفة في الحركة وتودد في المعاشرة ! واتصل بكبار المماليك وصار من صنائعهم ، وقربه مراد بك وأغدق عليه ورفع شأنه وقلده أمر الجمارك ، فلما نزل الفرنسييس في ثغر الاسكندرية ، تزعم السيد كريم المقاومة ضدهم فقبضوا عليه واتوا به الى القاهرة ، وحبسوه في

القلعة . وعند تفتيش قصر مراد بك في الجيزة عثروا على مكتوب من السيد كريم الى مراد بك يصف له ما جرى في الاسكندرية ويحثه على حشد العساكر لقتال الفرنسيين . فاشتد غيظهم عليه ولكنهم تركوه محبوسا في القلعة ولم يمسوه بسوء . وعندما قامت ثورة القاهرة وتقرر اعدام زعمائها . اغتتمها الفرنسيين فرصة فقرروا التخلص من السيد كريم ، فطالبوه بمال يدفعه وحددوا له مقدارا يعجز عن دفعه . وأمهلوه اثنتي عشرة ساعة . وإلا يقتل بعدها . وأرسل السيد كريم الى شيخ تجار القاهرة احمد المحروقي . والى المشايخ يستغيث بهم . وصار يصرخ كالمجنون في الناس الذين تجمعوا في ساحة الاعدام : « اشتروني يامسلمين » وكل انسان مشغول بنفسه ومتوقع لشر يصيبه ! فلما انقضت المهلة أركبوه حمارا وشقوا به الصليبة الى أن ذهبوا الى الرميلة وكتفوه وربطوه مشبوحا . وضربوه بالنار ، ثم قطعوا رأسه ورفعوه على نبوت وطافوا به شوارع القاهرة ، والمظاى ينادى : هذا جزاء من يخالف الفرنسيين ! ومع هؤلاء العلماء الافاضل والاعيان المرموقين ، يبرز اسم واحد من ابناء أدنى طبقة في السلم الاجتماعي هو أحمد القراد . وكان يسرح بقرد في شوارع القاهرة يستجدي المارة وينام مع قرده خلف المشهد الحسيني . وكان لطيف الكلام فيه نباهة وفراصة وحسن تصرف فلما قامت الثورة تولى منصب أمين الاتصال . وكان القرد هو اكبر خدعة . فقد تولى حمل الرسائل بين زعماء الأحياء . وتولى تنسيق الخطط بين الثوار وابلاغ التعليمات . وأبلى في الثورة بلاء حسنا . ومات القرد قتيلًا برصاص الفرنسيين خلال المعركة . وقتل أحمد القراد شهيدا في القلعة وكان أول من أعدم من الشهداء ! .

ولكن يبقى بين هؤلاء جميعا بطل ابطال ثورة القاهرة ، والرجل المعجزة الذي أمسك كل الخيوط بين يديه وادار المعركة كقائد عبقرى وثورى محترف ، وهو الشيخ سليمان الجوسقى . ولا أدري كيف لم يلتفت أحد من حضرات « المؤلفاتية » إلى هذا الهرم الأكبر في تاريخ مصر الحديث . ولكن هذه قصة أخرى . المهم أن هؤلاء الشهداء قتلهم الفرنسيين ليلا ، وأعدموهم سرا ، وظنوا انها النهاية . ولكن رواية التاريخ تثبت العكس ، لقد كان موتهم هو .. البداية !! .

ومن حق الشيخ سليمان الجوسقى أن نفرده له فصلا خاصا به . فهو طراز خاص من الثوار . وهو بطل فريد من نوعه ، وهو رجل ولا كل الرجال وكان الرجل صاحب شهامة وصرامة وجبروت . وكان يتولى

مشيخة طائفة العميان ويشرف على أوقافهم ويرعى مصالحهم ويقوم بتحصيل حقوقهم بنزاهة . فإذا ما طل احدهم في الدفع أرسل اليه جيوش العميان فلا يجد المماطل بدا من الدفع ! وكان اذا خرج احد العميان عن طاعته احضره موثوقا مكشوف الرأس مضروبا بالتعالات على رأسه وقفاه . من بيته الى بيت الشيخ في الموسكى ، وكان له أعوان يرسلهم الى الملتزمين بالجهة القبلية يأتون اليه بالسفن المشحونة بالغلال والسمن والعسل والسكر والزيت وغير ذلك . ويبيعها في أيام القحط بأقصى القيمة . ويطحن منها على طواحينه دقيقا ويبيع خلاصته بخارة اليهود ويعجن نخالته خبزا لفقراء العميان يتقوتون به مع ما يجمعونه من الشحادة في طوافهم أثناء الليل وأطراف النهار بالاسواق والأزقة وتغنيهم بالمدايح والخرافات وقراءة القرآن في البيوت ومصاطب الشوارع وغير ذلك . وإذا مات أحد من العميان ورثه الشيخ الجوسقى ، وفيهم من ترك الموجود الأعظم والمخزون الأكبر ! وصار الشيخ الجوسقى واحدا من أعيان الصدور المشار اليهم في المجالس ، تخشى سطوته وتسمع كلمته ، ويقال قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا ، وصار يلبس الملابس والفراوى ويركب البغال واتباعه تحيط به . وتزوج الكثير من النساء الأثرياء الجميلات . واشترى السراري البيض والحبش السود . وكان يقرض الأكابر المقادير الكثيرة من المال ليكون له عليهم الفضل والمنة !

هكذا كانت حياة الشيخ الجوسقى شيخ طائفة العميان حتى قامت الثورة في القاهرة ، وعندما ثار الناس على عسكر الفرنسيس وتجمعوا في الأزهر ، لجأ العامة للشيخ الجوسقى فصرخ فيهم : اليس لكم أبدان وأرواح ؟ الستم بشرا كالفرنسييس ؟ اذن لماذا لا تخرجون اليهم فيبيدونكم أو تبيدونهم ، وهو خير لكم في الحالين . لأنكم تحيون كالموتى وتزحفون كالأفاعى وتموتون كالذباب ! والهبت كلمات الشيخ الجوسقى الجمع المحتشد .

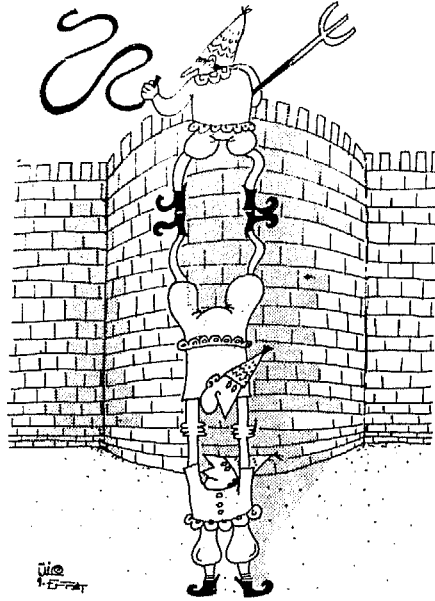
وعندئذ تقدم اليه شيخ من إياهم يبصره بعواقب كلامه . وينهره عن قول ما يثير الخواطر ويقلق العقول ، فلطمه الشيخ الجوسقى على وجهه ، وصاح فيه : احرص يا كلب . تحفظ كلام الله وتنطق بكلام الفرنسييس ! . فلما اشتعلت الثورة اخرج الشيخ الجوسقى كل ما في حواصله من غلال ودقيق ووزعه على المقاتلين ، وأخرج ما لديه من مال واشترى السلاح من كل مصدر وبالثمن الذى يطلب فيه ! وبث العميان في كل ركن من أركان المدينة يأتون اليه بالأخبار . ثم انتقل من داره الى الجامع الأزهر ، واتخذ

من رواق العميان مركزا لقيادته . فلما اشتدت المحنة وتضاعفت الغمة . وكان لابد من رجل واحد لقيادة الثورة ويكون له السمع والطاعة ، اقترح الشيخ البيلي ان تكون القيادة من نصيب الشيخ سليمان الجوسقى ، عندئذ صاح الشيخ سليمان ضاحكا وكان صاحب نكتة وحاضر البديهة : اعمى يقود مبصرين .. ياويلكم يا قوم ! وقبل المنصب وشمر عن ساعديه وظل ملازما لمكانه لم يبرحه . حتى ان الماء لم يعرف طريقه الى جسده خلال الثورة وفي فترة سجنه وحتى مات ! وكان يركب حماره ويشق القاهرة من الغورية الى الصنادقية الى الفحامين الى خان الخليلي الى باب الفتوح يتفقد جبهات القتال ويقف على احوال المعركة بنفسه ويعود الى مقر قيادته فيأمر بارسال المؤن والذخيرة والمحاربين الى الأماكن التي تحتاج اليها . وينفق في ذلك عن سعة ، ولا يبخل بأى شئ يملكه ، ولقد استخدم سراريه البيض والحش في اصطیاد عساكر الفرنسيس وجذبهم الى حارات مهجورة . ثم قتلهم والاستيلاء على اسلحتهم . واستخدم كل فنون حرب الشوارع الحديثة ، من القناصة الى الأكمتة ، الى العربات المملوغة ، الى الأطعمة المسمومة . وذات مرة وقع في أيدى بعض عساكر الفرنسيس وكان يركب حماره ويمر من عند باب الخلق ، وكان يصيح في الناس ليثبتوا على قتال الفرنسيس . ولكنه نجا من قبضتهم بأعجوبة . فقد ظل يصيح وهو يردد وينتفض . ونزع عمامته والقي بها على الأرض . ثم ترحل وراح يرقص ويغنى ، فظن العساكر الفرنسيس ان به مسا من الجنون فتركوه لحال سبيله !

وعندما انتهت الثورة اختفى أياما في بيت احد العميان في حارة طبل خلف المشهد الحسينى . وظل مختفيا حتى دلت عليه امرأة شركسية من سراريه كانت تحنق عليه لسبب ما . وعندما سألوه في سجن القلعة عن السبب الذى من اجله تزعم الثورة ضد الفرنسيس . أجابهم قائلا : لأن الله أمرنى بأن احارب اعداء الدين !

واحتل الشيخ الجوسقى صفحة باهرة في تاريخ مصر الحديث . وذهب الى الرفيق الاعلى ، هذا الذى كان شيخا للعميان فصار شيخا للثوار !

□ □ □



الفصل الحادي عشر

مكاتب الفصحى

وتوالت المحن والمصائب على نابليون ، ثبت له قائد عربي عظيم هو أحمد الجزار وهزمه عند أبواب عكا ، وردّه مهزوماً إلى مصر ، ودبت الروح في الممالك من جديد فهاجموا مراكز الفرنسيين في الجزيرة والوجه البحري واستولوا على قلعة أبو قير وقتلوا من فيها من الفرنسيين ! وعندما اكتشف نابليون أنه بدأ يفوص في رمال مصر المتحركة ، هرب ذات ليل وحيدا في موكب صغير وخلفه الجنرال كليبر في قيادة قوات الفرنسيين في مصر ! وتولى كليبر توقيع اتفاقية الجلاء مع مندوب الباب العالي واستعد الفرنسيين للرحيل ، وعندما استبد الحماس بآبناء البلد فأرادوا الانتقام من نصارى الأروام الذين ساندوا عسكر الفرنسيين وأعانواهم على ظلم أهل مصر ، فلما كبس العامة حارات نصارى الأروام أطلق عليهم أهلها النار من الطيقان ومن فوق الأسطح ، وانتشرت الثورة في القاهرة ، وتزعّم الثورة السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقي وحسن بك الجداوى وعثمان الأشقر . واتخذ زعماء الثورة من حى الجمالية مركزا لقيادة الثورة ، وكان كل من قبض على فرنساوى ذهب به إلى الجمالية وسلمه لعثمان كتحدا ، وكذلك من قطع رأسا من رؤوس الفرنساوية يذهب به إما لنصوح باشا في الأزبكية وإما إلى الجمالية ، وانضم أولاد البلد إلى عسكر العثماني وعسكر الممالك وحرسوا الأبواب والحارات والخطط ، وراحت قيادة الثورة تمد الجهات التي تطلب النجدة بالرجال المسلحين ودخل محمد بك الألفى القاهرة ثانى أيام الثورة وتمترس في ناحية السويقة ، وتولى رجل من المغاربة قيادة مجموعة من أهل البلد أبليت بلاء حسنا ، وأظهر الرجل المغربى ومن معه من الرجال شجاعة تفوق الوصف وقتل من الفرنسيين مقتلة عظيمة . وأما بولاق فإنها قامت على

ساق واحدة ، وتصدر الحاج مصطفى البشتيلي وهيجه العامة وهجموا على وطاق الفرنسيين عند ساحل بولاق وقتلوا من بقى فيه من عسكر الفرنسيين ونهبوا ما به من قماش وخيام ومتاع وغيره ! وعندئذ عاد الجنرال كليبر على رأس جيشه وحاصر القاهرة وكبس على بولاق وعزلها عن بقية أخطاط مصر ! وعندئذ اشتد الكرب والضرب وواصل الفرنسيين ضرب مصر بالمدافع ، وعمدت الأقوات وغلت أسعار المبيعات وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات ، وشح الماء الصالح للشرب ، وبلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا . أما النهر فلا يكاد يصل إليه أحد . وهلك البهائم من الجوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشعير والدريس ، وتولى حسن بك الجداوى قيادة قوات القاهرة وأبلى بلاء حسنا ، ولكن قلة الزاد وندرة المياه قلبتا موازين المعركة في صالح الفرنسيين ، وذهب بعض المشايخ إلى صارى عسكر فرنسا يطلبون الصلح ، ووافق صارى عسكر بشرط خروج العسكر العثمانى وأيضا عسكر الممالك من القاهرة ، وأعطى أبناء المدينة أمانا بشرط أن يلزموا دورهم وأن يلقوا السلاح . فلما عاد المشايخ بشروط الصلح هاج العامة عليهم وأسمعهم قبيح الكلام وضربوا الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى ورموا عمائمهم على الأرض . فلما غاب المشايخ عن الحضور بالجواب أرسل صارى عسكر إلى المحاربين من أهل القاهرة يسألهم رأيهم فى عرض الصلح وجاءه الجواب : لا صلح ولكن الحرب بيننا وبينكم حتى نظفر بكم أو نموت !

وجاء يوم الهجوم الأكبر على القاهرة . غابت الشمس فيه وأمطرت السماء وأرعدت ، ودك الفرنسيين المدينة وأشعلوا فيها النار ، وكان معظم كبستهم من جهة باب الحديد وكوم أبى الريش وجهة بركة الرطلى وقنطرة الحاجب والحسينية والرميلة ، وهجموا على بولاق من ناحية النيل ومن بوابة أبى العجا ، وقاتل أهل بولاق جهدهم والقوا بأنفسهم فى النار حتى غلب الفرنسيين عليهم وملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ما يشيب من هول الغراب !! وقبضوا على الحاج مصطفى البشتيلي بطل معركة بولاق وسلموه لأهل بولاق من فقراء الناس الذين لم يقاتلوا ولم يشتركوا فى أحداث الحرب ، وأمرهم بقتله لأنه سبب الفتنة وخراب بيوت الناس !! وكان الحاج مصطفى البشتيلي الذى عروه من ملابسه شجاعا لا يهاب الموت ، وقف وسط الجمع المحيط به يشتم الفرنسيين ويلعن أعداء الدين ، ثم تكاثر عليه العامة وضربوه بالنابيت حتى مات ، وذهب

مصطفى البشتيل وياقة من أبطال القاهرة لمقابلة الرفيق الأعلى ، وذهب بعض المشايخ الأرزية لمقابلة الرفيق كليبر . يطلبون منه الصلح والأمان ، ولكن كليبر لا يلدغ من جحر مرتين . إحتقر مشايخ الصلح وأهانهم ، وفرض عليهم فردة كبيرة ، وهدد بإعدامهم إذا تأخروا عن سدادها . وكانت النتيجة أن الشيخ السادات بال على نفسه ، وفعل الشيخ الشرقاوى ما هو أخزى من هذا ، وعندما أفرج عنهم صارى عسكر فى المساء ، خرج مشايخ الصلح حفاة يهتفون : يا خفى الألفاظ نجنا مما نخاف ! وستجرى الأحداث بسرعة القطار ، وسيضطر نابليون إلى الخروج من مصر ، وسيوقع على وثيقة ذليلة تسمح لجنوده بالجلاء عن مصر فى أمان ، وستنتصر بريطانيا العظمى ، وستفرض سياستها فى وادى النيل ، غير أن الريح تاتى عادة بما لا تشتهى السفن . كان الرجل الذى اختارته الامبراطورية العثمانية ليفرض القانون والنظام فى القاهرة هو محمد على ، وكان رجل دولة من الطراز الأول . كفئا وطموحا وداهية . يجيد استخدام كل الأوراق التى تحت يديه لتحقيق أهدافه ، وكان يدرك ببصيرته السياسية أن امبراطورية آل عثمان قد ماتت ولا ينقصها إلا الدفن . وكانت أطماعه وأحلامه تتفق مع سياسة فرنسا وتتناقض مع سياسة بريطانيا ، ولكن سياسة لندن لم يفتنوا فى البداية إلى هذا الأمر . فلما فطنوا إليه لجأوا إلى محمد الألفى آخر الممالك العظام . وسرعان ما تفاهموا معه وعقدوا معه حلفا ، وأخذوه معهم سرا على سفينة حربية إلى لندن وقضى هناك عاما وبعض عام . تلقى خلالها دروسا فى اللغة الانجليزية ، وعندما اتضح للجميع اتجاه محمد على ، ورغبته فى إقامة امبراطورية عربية تحل محل امبراطورية آل عثمان وتقوم على أنقاضها ، مستعينا بالخبرة الفرنسية . حملوا محمد الألفى من جديد على ظهر مدمرة إنجليزية وألقوا به على شاطئ دمياط ، وهكذا بدأت المواجهة بين إنجلترا وفرنسا من جديد على ضفاف النيل ، أو بين محمد الألفى ومحمد على ، وكان الرهان والميزان والظروف كلها مع الألفى وضد محمد على ، ولكن النتيجة كانت انتصارا لمحمد على ، وهزيمة كاملة لمحمد الألفى ، ولكن قبل الدخول فى تفاصيل الصراع بين الرجلين ينبغى أن نتوقف عند حادث مضى فى تاريخ مصر والعرب . هو مقتل كليبر قائد الحملة الفرنسية بعد هروب نابليون . لقد جاء ولد شامى من حلب يدعى سليمان ، ودخل فى طلبه الأزهر ، وانتظم طالبا فى رواق الشوام وقضى أياما فى القاهرة منطويا على نفسه ، ثم كمن للقائد الفرنسى فى حديقة الأزبكية وانقض عليه وقتله .

والقوا القبض عليه وساقوه للمحاكمة ، وحاولوا أن ينتزعوا منه اعترافا
باسماء شركائه الذين عاونوه على دخول مصر وساعدوه على قتل كليبر .
ولكن الرجل الشامى لزم الصمت ، فعدبوه ولكنهم لم يظفروا منه بشيء .
فليس للرجل شركاء ولا أعوان ، ولم يحركه شيء إلا الغضب القومى ،
وإحساسه بأن ما يضر مصر يضر الأمة العربية ، وما يسيء إلى مصر يسيء
إلى كل عربى ، ولم يفهم الفرنسيون طبعاً مغزى هذا الكلام ، وظنوه هوس
شباب مجنون ، وأقاموا محاكمة للحلبى وحكموا بموته على الخازوق ، وكان
سليمان الحلبي أول شهيد للقومية العربية فى العصر الحديث ، وأول
فدائى عربى بعد أن جنم آل عثمان على صدر الأمة وكتموا أنفاسها !
المهم أن محمد الألفى آخر عبقرية مملوكية نزل عند شاطئ دمياط
واستقل قارباً وتوغل فى فرع دمياط قاصداً القاهرة ، وكان المماليك لحظة
نزوله إلى البر قد انقسموا قسمين . قسم مع الألفى وقسم مع محمد على ،
ولذلك علم الوالى بالأمر فسير للقبض على المملوك المتحرر عساكر وبث فى
الأرجاء مئات من البصاصين ، ولكنهم لم يعثروا على الألفى إلا عند قرية
سرياقوس . فاضطر للهرب ولجأ إلى قرية الخانقاه (الخانكة) واحتمى
ببعض الأعراب ، وأخفاه هؤلاء عن أعين السلطة . ثم انقلبوا عليه بعد
ذلك وشلحوه من متاعه وسلاحه وعرويه من ملابسه . ونجا من قبضتهم
بمعجزة واستطاع المرور من خلف القاهرة عبر جبل المقطم ، وحث السير فى
طريقه إلى الصعيد ، واجتمع حوله كل المماليك الهاربين من محمد على
والظامعين أيضاً ، وأصبح محمد الألفى قوة يحسب لها ألف حساب .
ولم يكن الرجل من طراز المماليك الذين يغيرون مواقفهم حسب الأحوال ،
ولم يكن من الصنف الذى تستميله الصلات والعطايا ، ولكنه كان من
النوع الذى يؤثر فى التاريخ ويصنعه ، وكان شجاعاً وكراماً ومتواضعاً
وشهماً ، وكان بهيئته وخصاله أميراً بحق . وأصله من ممالك الجراكسة ،
وقد اشتراه عثمان بك الطنبورجى وهو فى الثالثة عشرة ، وكان
الطنبورجى محباً لمجالس اللهو والطرب . شغوفاً بالعطور والنساء ،
ولذلك طلب المملوك الصغير محمد من سيده أن يبيعه لأنه لا يطيق مثل
هذه الحياة ، واغتاظ الطنبورجى بك من مملوكه الصغير وقرر أن ينتقم ،
فأهداه إلى على بك الكبير ، وكان رجلاً جاداً وحازماً وقاسياً على ممالিকে ،
وتصور الطنبورجى أن المملوك المتمرد سيلقى حتفه نتيجة القسوة التى
سيلقاها فى معسكر على بك ، ولكن لم تكد تمضى شهور قليلة حتى استدعى
على بك صديقه الطنبورجى وأهداه ألف أردب حنطة مقابل المملوك الصغير

محمد ! وكانت الألف أردب حنطة في ذلك الزمان - زمان القحط والمجاعات - تساوى الشيء الكثير ، ولذلك أطلق الممالك على المملوك الصغير محمد لقب الألفى . لأن على بك الكبير دفع فيه ألف أردب حنطة ! وتعهده على بك بنفسه وقربه إليه ، وتنبا له بولاية مصر من بعده !

وسرعان ما ألف محمد الألفى جيشا كبيرا ، وتبعه عدد كبير من عمد وأعيان البلاد ومن جماهير الناس الذين كانوا يعرفون فضل الألفى وشجاعته ، وعندما عرف محمد على بالأمر حاول أن يستميل إليه عددا من كبار الممالك ، ولكنه لم يجد إلا الصد حتى الممالك الذين كانوا قد توهموا أن محمد على قد استتب له الأمر وعاشوا في كنفه ، أخذوا يتسللون واحدا وراء الآخر تحت جنح الظلام ليلحقوا بمحمد الألفى ! وحاول بعد ذلك أن يستأجر بعض الأشخاص لاغتتيال محمد الألفى في الصعيد ، ووافقه بعض من فاتحهم وتناولوا أجرهم عن ذلك . ثم هربوا وانضموا إلى محمد الألفى . وحاول محمد على أن يخدع الألفى فيعقد معه اتفاقا يتولى بمقتضاه الألفى نيابة مصر ويتولى محمد على قيادة الجيش ، ولكن الألفى لم ينخدع وتحرك بجيشه من الصعيد زاحفا نحو القاهرة ، وكان يجد ترحيبا بالغا في كل مكان يدخله ، وفي منفوط استقبله قاضى المدينة وأهداه كمية من أجود أنواع الرمان وأهداه الألفى مقطعا من الحرير الهندى وخلع عليه فروة سمور ومنحه ألف عثمانلى ذهباً ، ولم تكن هذه هدايا مملوك عادى ، ولكنها كانت هدية ملك ! ولقد ظل محمد على يرتعد خوفا كلما ترامت إلى أسماعه أنباء محمد الألفى الزاحف صوب القاهرة ، وجمد مكانه عندما سمع بأن جيش محمد الألفى قد وصل إلى بر الجيزة .. إنها الحرب إذن !

وكما كان محمد الألفى مقاتلا من طراز عظيم . كان محمد على سياسيا داهية من طراز خاص ، ولذلك لم يسارع لمواجهة عسكرية مع محمد الألفى . بل استعد للحرب دون أن يتورط في معركة ، وأرسل عددا من البصاصين ليتعقبوا جيش محمد الألفى ويبلغوه بخط سيره أولا بأول ، وعندما علم محمد على بأن الألفى قد عبر الصحراء من خلف الأهرام في طريقه إلى قرية أوسيم . خرج محمد على بجيشه من القاهرة وعبر النهر وكمن وراء تل كبير عند قرية وراق الحضر ، وعندما مر جيش محمد الألفى . ووقع نظر محمد على عليه . أثر أن يبقى مكانه مختبئا وراء الأكمة حتى مرجش الألفى . ثم سارع في العودة إلى القاهرة . لقد أدرك محمد على الداهية أن المعركة لن تكون لصالحه . فآثر أن يختفى في القاهرة وأن

يحنى خلف أسوار القلعة . وريثما تحين فرصة للقضاء على جيش الألفى . ولكن حظ محمد على لم يسنح للحظة المواجهة أن تحدث . إذ لم يلبث الألفى بعد أن تجاوز وراق الحضر بقليل أن شعر بضيق في تنفسه فامر جيشه بالتوقف وقضاء الليل هناك . ولكن حالته أخذت في التدهور وبلغت أقصى حالات السوء قبل الفجر بقليل . وخرج الألفى من وطائه وصعد على تل قريب لقضاء حاجته . ورنا ببصره نحو القاهرة فإذا بها تسبح في النور . وهتف الرجل حزينا والألم يعتصر قلبه : أيا مصر ، يسكنك الغزاة والإجناد من كل جنس وكل ملة . وأبناؤك الميامين يهيمون على وجوههم في القفار كالبوم والغربان . ولم يطق الرجل فحم وتقيا دما و .. مات !!

وبكى الممالك حول جثة الألفى كما لم يبكوا قط ! وعهدوا إلى أحد الأعراب بحمل جثته ودفنه في قرية البهنسا ، ولقد ذهب الأعرابي الذى دفن الألفى مسرعا إلى القاهرة وصعد إلى القلعة وقابل محمد على وبشره بموت الألفى فلم يصدقه . واستغرب ذلك ، وحبس البدوى الذى أتاه بالبيشارة أربعة أيام ! وعندما ثبت موته عند محمد على امتلا فرحا وسرورا خلع على البدوى فروة سمور وأعطاه مالا وفيرا وأمره أن يركب بتلك الخلعة ويشق بها من وسط القاهرة . ولكن سكان المدينة لم يصدقوا الخبر ، وظنوا أن في الأمر حيلة . لأنه لما سافر إلى لندن لم يعلم بسفرو أحد . ولكن الخبر الذى لم يصدقه الناس لم يلبث بعد أسابيع أن تأكد ! وعندما تفرقت قبائل العربان التى كانت متجمعة حوله ، وبعضهم أرسل في طلب الأمان من محمد على . ولم يسر أحد بموت محمد الألفى مثل محمد على . فقد كان يردد دائما : مادام هذا الألفى موجودا لا يهنا لى عيش ، ومثالى أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبل ، لكن هو فى رجليه قبقاب ! ولهذا .. عندما أتاه المبشر بموت محمد الألفى قام فرقص بالسيف ، وقال : الآن طابت لى مصر وما عدت أحسب حسابا لغيره !

ولقد كان محمد الألفى ميزة ينفرد بها عن جميع الذين سبقوه والذين عاصروه من الممالك ، وهى امتثال جميع قبائل العربان بمصر لأمره وتسخيرهم وطاقاتهم له لا يخالفونه قط ، وكان له معهم سياسة غريبة ومعركة بأحوالهم وطبائعهم ، يقومون ويقعدون لأمره . مع أنه يصادرهم في أموالهم وجمالهم ومواشيهم ويحبسهم ويطلقهم ويقتل منهم ، ومع ذلك لا ينفرون منه ، وقد تزوج من بناتهم كثيرا ولم يبق في عصمته غير واحدة كان شديد التعلق بها وقد مات عنها ، ولما بلغ العرب موته اجتمعت بنات

القبائل وصرن يندبن بكلام عجيب تناقلته مطربات العرب وركبن عليه دورا وقوافي ، وصار الألفي بين النجوع والكفور شهيد الحب والعشق والشجاعة ..

وليس أعجب من موقف البدو تجاه محمد الألفي عندما هرب من مماليك البرديسي ومن محمد علي في وقت واحد . فقد هرب عند بدوى يدعى عشيبه . فأواه وأخفاه وكنم أمره ، والبرديسي ومن معه يبالغون في البحث والتفتيش وبذل الأموال ورصد المكافآت لمن يدل عليه ! ولم يفشوا سره ولم يدلوا عليه ، وبثوا في الطرق انفارا منهم تحرس الطريق وتكشف له المجهول . حتى قيل يومئذ ان محمد الألفي ساحر يسحر الناس ، وذلك بالقياس إلى فعل البدو في الماضي مع غيره من الناس . فقد لجأ سلطان مصر طومان باي ذات يوم إلى شيخ أعراب البحيرة ، وبعد أن أقسم له بحمايته . ذهب إلى معسكر السلطان سليم العثماني ودله على مكان طومان باي وسلمه إلى حبل المشنقة ، ولكن الأمر مع محمد الألفي كان يختلف ..

ولقد أوصى محمد الألفي المماليك قبل موته بعدم الدخول في طاعة محمد علي وحذرهم من مكروه ، وعين شاهين بك خليفة له من بعده ، وعاب على الانجليز نكثهم بوعودهم ، لأنهم كانوا قد وعدوه بإرسال فيلق بريطاني لتمكينه من استرداد ولاية مصر وطرد محمد علي . لقد انتظرهم محمد الألفي طويلا ولكن لم يظهر لهم أثر ! وبعد موته وصلت العساكر الانجليزية إلى الاسكندرية . فلما علموا بموته أبدوا استعدادهم لنجدة من يريد من المماليك ومساعدته على تولي حكم مصر . ولكن المماليك كقوة سياسية وعسكرية وكمؤسسة لها شأنها في الحياة المصرية . كانت قد انتهت بموت الألفي . وكانت مذبحه القلعة مجرد تحصيل حاصل ! لأن محمد علي لم يقتل إلا أشباحا ، ولم يذبح إلا بقايا وأشلاء كانت تحمل اسم المماليك وليس له صفاتهم . ولقد كان القضاء عليهم هو حتمية التاريخ لتدخل مصر في دائرة الضوء ، ولتتسر قضبان الخضوع والذلة والتخلف . كان محمد علي حاكما موهوبا وكان داهية في أمور السياسة . ففتح العقل على كل ما حوله من تيارات العصر ، ولذلك إتجه إلى فرنسا وتعاون مع حركة السان سيمونيين وكان كما قال بيرم التونسي بحق : « محمد لما شرفها / بعينه المبصرة شافها / كنوز بس اللى يعرفها ويعرف ينتفع بيها / مزارع جوها دافي / وطولها وعرضها وافي / وليه يمشى ابنها حافي / يمد الأيد ويطويها » .. ولقد أبصر محمد علي كل هذا . وأدرك مغزاه !





دعای ارفغانی

ولكن قبل الدخول في رحلة طويلة
مضنية مع محمد على ينبغي أن نسدل
الستار على الممالك بالوقوف عند مذبح
القلعة ! إذ أنه بعد موت الألفي .
استطاع محمد على أن يشق صفوف
الممالك وأن يفرقهم . واستمال بعضهم
وحارب البعض الآخر . ثم عفا عن الجميع ، وسمح لهم بالدخول إلى
القاهرة وأغدق عليهم وأقطعهم الاقطاعات وعمر لهم الدور والقصور وقرر
لهم المرتبات الضخمة ، وكان يرسل إليهم الهدايا الثمينة ويدعوهم إلى
مجلسه حتى اطمأنوا إلى محمد على ووثقوا فيه . ومضت الحياة هنيئة
بالممالك ، يتزوجون ويتناسلون ويجمعون الاتاوات من الفلاحين . ولكن
محمد على ظل يقظاً لا يغمض له جفن . وعندما أدرك أن الساعة قد حانت
شرع في تنفيذ خطته على الفور . ولكنه كان يبحث عن مناسبة ، وجاءت
المناسبة حين أصدر محمد على فرماناً بتعيين ابنه طوسون قائداً للحملة
المصرية المسافرة إلى بلاد الحجاز . ثم قرر الاحتفال بسفر الحملة شعبياً
ورسمياً ، وأطلق في المدينة المذاين ، وقد ارتدى كل منهم عدة الشغل :
الطبق على رأسه ، ويرتدى الضلمة وراكب حمار عال وأمامه مقدم بعكاز
وحوله قابجية ينادون « يارن الاى » . وهكذا هبت على القاهرة نسيمات من
الماضى البعيد المجيد ، ولكن أحداً لم يتصور لحظتها أن محمد على قد قرر
بالفعل عبور جسور التاريخ ، والعودة بمصر إلى سابق مجدها القديم ! .

انتظم الموكب صباح يوم السادس من محرم عام ألف ومائتين وستة وعشرين في صحن القلعة ، وأطلع الأمراء بمماليكهم وعساكرهم فدخل الأمراء عند الباشا وسلموا عليه وشربوا القهوة معه وتضاحك معهم ، وكان بسيطا وبشوشا ومرحا على نحو ما وعندما بدأ سير الموكب إلى خارج القلعة منحدرًا فوق الطريق الحجري نحو المدينة ، خرج طوسون باشا وعساكر الولاية والفرسان ثم الأعيان والتجار ، وكان المماليك في نهاية الموكب بقيادة شاهين بك الألفى . ولكن قبل أن يخرج المماليك من باب القلعة ، أغلق الباب فجأة وانهار عليهم الرصاص من كل جانب ، وفهم العساكر المتحسرون فوق الأبراج المراد فاطلقوا النار على المماليك في الحال ، وخر منهم عشرات صرعى في الحال ، وألقى الآخرون بما على اكتافهم من ملابس ثقيلة وركنوا إلى الفرار داخل القلعة . ولكن الرصاص حصدهم فسقطوا كالجراد . ووقع شاهين بك مصابا بطلقة في صدره ، فهجم عليه عساكر محمد على وأجهزوا عليه بالطعنات ثم قطعوا رأسه وجروا به إلى حيث كان يجلس محمد على يشرب القهوة . وذلك ليحصلوا من الباشا على الحلوان ! وكان كلما سقط كبير من المماليك قطعوا رأسه وجروا به للباشا لتهنئته وتناول المعلوم . وفي الحال ، وعندما ترامت أنباء المذبحة إلى العامة في المدينة وإلى عساكر محمد على . سارع الجميع إلى الهجوم على بيوت المماليك ، ففسقوا في النساء والجوارى وعروهن وسلبوا حليهن . وكان الجندي الأرناؤوطي يحاول استخلاص السوار من معصم السيدة فلا يستطيع فيعتمد إلى قطع يدها للحصول على ما يريد . ونهبوا الدور بما فيها من فرش وأثاث وتحف ، وسلبوا سكانها نقودهم ، وخطفوا الجوارى والغلمان ، وبعضهم سكن الدور واكتفى بطرد السكان وقتل بعضهم . أما المماليك داخل القلعة فقد قاوموا ببسالة وهجموا على عسكر محمد على بالسيوف ، ولكنها كانت مقاومة اليأس الذي انسدت كل السبل في وجهه . وعندما أدركوا أنها النهاية ، طلبوا وقف إطلاق النار ريثما يتم لهم إقامة الصلاة الأخيرة . ولقد سمح لهم الجند بتحقيق هذه الأمنية ، وسجدوا جميعا على أرض القلعة ، وتيمموا لتعذر وجود الماء ، ولم يطل أحد منهم في صلاته ، بل سارعوا بها وأسرعوا فيها وطلبوا من الله الصفح والغفران ، ثم وقفوا أمام الموت بشجاعة ، وتلقوا مصيرهم ببرباطة جاش . ولم ينج من المذبحة الرهيبة إلا أمين بك . الذي تسلق أسوار القلعة بحصانه ، وقفز من هذا العلو الشاهق ، وقد انكسرت ساقه ، ولكنه تمكن من الهرب ولاذ بالفرار في الصحراء الشرقية ولم يلبث أن ظهر بعد ذلك في بلاد الشام !

ولم يكن كل الممالك بالطبع في القلعة لحظة وقوع المذبحة . كان بعضهم غائبا في الأرياف لجباية الفرد والضرائب وحق الطريق وغيرها من المظالم ! وقد انبط أمر هؤلاء بحكام الأقاليم . وقام هؤلاء بالمهمة على الوجه الأكمل ، وقتلوا كل من كان عندهم من الممالك وقطعوا رءوسهم وأرسلوها إلى القاهرة . أما المرضى وكبار السن فقد طلبوا الأمان من محمد علي فأمّنهم . وعندما ظفر بهم احتجزهم أياما ثم قطع رءوسهم وحشاشها تبنا وعلقها على أغصان الشجر في الرميّة وحول القلعة . وقد لجأ ثلاثة من الممالك الشبان إلى بيت الشيخ السادات واستجاروا به ، فطلب من محمد علي الأمان لهم ، فاستجاب لطلب الشيخ السادات ، وبعث في طلبهم ، فارتابوا في الأمر ، وقالوا : إذا كان قد أعطانا الأمان فلماذا يطلبنا ؟ ولكن الشيخ السادات طمأنهم وطيب خاطرهم فاذعنوا وطلعوا إلى القلعة . فعراهم الجند من ثيابهم وسلبوهم أموالهم ، وزجوا بهم في الحبس . ولم تمض أيام حتى ذبحوهم ذبح النعاج وطاقوا برءوسهم في حواري القاهرة ! وهكذا انحطت من تاريخ مصر صفحة الممالك المثيرة الرهيبة الباهرة ، وتمت تصفية أعظم حزب سياسى شهدته مصر في القرون الوسطى . واختفت من فوق المسرح السياسى المصرى طائفة أضافت إلى أمجاد مصر أمجادا خالدة ، وكسبت لها انتصارات بقيت مضيئة على مر التاريخ . وبرغت من صفوفها كواكب تفخر مصر ببنوتهم ، قطز والظاهر بيبرس وقللاون وقنصوه الغورى وطومان باى وعلى بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب ومحمد الألفى ! وانتهت إلى الأبد حكاية الممالك ، وطابت مصر لمحمد علي !

ولكن محمد علي العظيم لم يأت عبثا ولم يذهب سدى ! أيقظ مصر من غفلتها ووضع السلاح في أيدي بنيها ، وسار بهم من نصر إلى نصر . وجاء بفلاح من الصعيد وأرسله إلى فرنسا ، ولما عاد عينه رئيسا لتحرير « الوقائع » المصرية ، وأمم الأرض الزراعية وانتزع من مصر برائن الإقطاع إلى ملكية الدولة . وفرض التجنيد الإجبارى ، وخرج الجندى المصرى عن مجاله التقليدى حتى في عصوره الزاهية ، فحارب في اليونان وفي روسيا القيصرية ، وعبر المحيط إلى المكسيك وسكن المصريون لأول مرة الدور الفخيمة ، واقتنوا التحف الثمينة ، واكتشفوا أنهم ليسوا أدنى درجة من صنف الجركس والأروام ، واكتشفوا شيئا أهم اكتشفوا مصر ! ولذلك بكى المصريون عندما فقدوا محمد علي ... كأنهم فقدوا قطعة من روح مصر . ولعل بكاءهم كان له سبب آخر ، لأن محمد علي ترك وراءه

حكاما دون المسئولية ، جهلة ومتعاضمين ، وعلى درجة عالية من التفاهة ، وراوا ان محمد على أضاع حياته في مالا يجدى ، وقضى العمر في ما لاينفع ، وأن الحاكم الفذ هو الذى يستمتع بالسلطة ، ويهنا بالسلطان !! ومر سعيد وعباس ومصر في حالة أكثر انحطاطا مما كانت عليه أيام المماليك . فاغلقت المصانع أبوابها ، وتحول الجيش إلى أداة للزينة أيام التشريفه ووقت خروج المحمل وفي تشييع جنازات العظماء !

وجاء الخديو اسماعيل ، وهو رجل طموح . ولكنه في الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ! ولقد رأى أن محمد على تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ، ولذلك قرر أن يهادن الغرب وأن يستفيد منه إلى أقصى درجة ! وما دام الغرب قويا فلا بد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التي يحيها الغرب ، فقرّر أن يتحول بمصر إلى الحضارة الغربية ، وهنا أخطأ اسماعيل في الحساب ، لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب ، ولكنها نتاج ظروف موضوعية وتاريخية ، وحاصل عمليات اقتصادية وعلمية ، ونتيجة مناخ لم يكن متوافرا في مصر ، ولم يكن اسماعيل على استعداد لتوفيره لها . ولذلك ستره يغرق في الديون حتى أذنبه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا !! ولقد نجح اسماعيل في ذلك بالفعل . شق الشوارع والميادين ، وبث النافورات والتماثيل ، وأقام المتاحف والمعارض ، ومد الجسور على النيل ، وشيد القصور الملكية على أرقى هندسة العصر ، وافتتح دارا للأوبرا ودارا للتمثيل ، وألف مجلسا للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للمصالحات والنوادي في عاصمة مصر ! ولكن مصيره لم يمتد إلى أبعد من القاهرة ، وعينه لم تلحظ وجود فلاحين يعيشون في الريف عيشة أكثر تعاسة من عيشة الكلاب ، فلم يكن الريف في نظره إلا مخزنا للطعام ، ومستودعا للبشر المستعدين دائما للخدمة .. وللصبر !! وعندما مات اسماعيل كانت مصر تغوص في مستنقع الديون . وترك وراءه طبقة تعيش على أرض مصر ، وتجيد الحديث بالتركية والفرنسية ، وترى في استعمال اللغة العربية تخلفا ! والانتساب إلى الفلاحين وصمة ! والاندثار من أصول مصرية إهانة ! وكان من مفاخر هذه الطبقة أنهم ينحدرون من أصول قوقازية أو تركية أو جركسية أو أرمنية ! وسنرى رئيسا لوزراء مصر أرمنيا اسمه نوبار باشا ! وجركسيا قائدا لجيش مصر اسمه السلحدار باشا ! وسنرى كل شذاذ الأفاق في كل موقع وفي كل منصب ، وستصبح مصر هدفا لهجرة كل حالم بالثراء في أوروبا ، وكان نصاب ودجال وكلاوچى ، أصبحت مصر هي البقرة التي تحلب

اللبن ، والدجاجة التى تبيض الذهب ، وبدأ عصر المتعة الحقيقية والاسترخاء الطبيعى ، عصر الريف وتجار القطن الأجانب ، وسماسرة البورصة ، إنه الانفتاح بلا قيود ولا سدود ..

وعندما جلس توفيق على عرش مصر كانت مصر تغلى فى الأعماق ، وكان الشارع المصرى يعانى من الضياع ، والمواطن المصرى يعانى من الازلال ، والجندى المصرى يعانى من غطرسة الارستقراطية العسكرية التى تتكون أساسا من ضباط أجانب خليط من الجركس والارناؤوط والالبان ..

وفى هذه الأثناء مر على مصر رجل كالأنبياء ، قاطع السيف ، واضح كالشمس ، هو جمال الدين الأفغانى ، وتعجب من الحال التى وصلت إليها مصر ، شعب صابر ومسالم ، وحاكم فاجر ، وعصابة من اللصوص الأجانب ! وجلس الرجل الذى كانت الثورة حرفته على مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبيت تعاليمه فى تلاميذه الذين التقوا حوله يعدون أنفاسه ، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفثيه ! وكان الرجل يصرخ فى وجه تلاميذه ، عجبى على هؤلاء المصريين يجرى النيل فى بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن ! إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلاذوكم يعيشون عيشة الملوك !! إنه خير لكم لو توقفت عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم ، ولو انتصرتم لغنمتم كل شئ ، ولو خسرتم فلن تخسروا إلا اليأس والفاقة !! وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم ، حتى ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه ، وكانوا خليطا من أنواع شتى ، طالب الدين محمد عبده ، والجندى أحمد عرابى ، والشاعر محمود سامى البارودى ، والفلاح محمد عبد العال الصعيدى ، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ، ولفتت الندوة انتباه السلطة ، وجذبت رائجتها أنوف جواسيس الحكومة ، وكان الأمر أكثر من أن يحتمل ! وذات صباح هجمت عساكر الخديو على دار الأفغانى ، واختطفت الرجل من فراشه ، وأبعدته عن مصر ، وظننت أن الأمور قد سارت فى الطريق الذى حددته ، ولكن الأمر الذى تركه الأفغانى فى مصر كان أكبر من كل تصورات السلطة ، ومئات الرجال الذين كانوا يلتفون حوله على مقاعد متناثرة فى مقهى متاتيا ، تحول كل منهم إلى جمال الدين الأفغانى ! وإذا كان التأثير قد مضى فإن تعاليمه قد بقيت ، وكلماته الخالدة قد استقرت فى الأرض ..

والقائد الحقيقى ليس هو الذى يقود فى حياته ، ولكن هو الذى يترك خلفه مصابيح تضىء الطريق من بعده ، وما أكثر المصابيح التى تركها الأفغانى ، وهو لم يترك مصابيح فقط ، ولكنها كانت مصابيح ومواد

ملتهبة في أن واحد ، وسرعان ما تفجر الأمر كله عن بركان سيهز مصر هذا
عنيفا ، وسيشعل النار في كل شيء ، سيزلزل الأرض تحت أقدام الطغاة ،
وسيدهش العالم كله ! وسيثبت حقيقة مصر الأبدية ، إن الحياة تمضي بها
في هدوء ، حتى يخيل للبلهاء أنها في غيبوبة ، ثم لاتلبث أن تنفجر فجأة ،
ويكون لانفجارها دوى عظيم ، وكان الانفجار هذه المرة أعنف مما تصور
البعض ، وأخطر مما تنبأ به البعض ..

.... إنها الثورة !





الصراط في النور !!

كانت الثورة هي قدر مصر ، وكان
محمد علي الكبير قد نجح في لفت نظر
المصريين إلى قدراتهم ، وكشف لهم عن
إمكانات بلادهم ، وما كان يمكن للمارد
أن يعود إلى القمقم من جديد . وكان
الباشوات ووجوه الطبقة التي نشأت
وترعرعت تحت جناح أسرة محمد علي وب حمايتها ، قد وجدوا أن خلفاء
محمد علي أضعف من تحقيق طموحاتهم ، وكان أرباب التجارة وأصحاب
الأرض الزراعية قد ضاقوا ذرعا بجهل الحكام واستبدادهم . ولذلك قام
الحزب الوطني من كبار الملاك والتجار والأعيان ، وانضموا في جبهة واحدة
من مجموعة الضباط الأحرار الذين كان يتزعمهم ضابط فلاح هو أحمد
عرابي ، والذي كان يوما ما تلميذا لجمال الدين الأفغاني . غير أن التلميذ
كانت رؤيته تختلف اختلافا يسيرا عن رؤية أستاذه . ولكنه كان في الوقت
ذاته اختلافا جوهريا وعميقا ! لقد كان جمال الدين الأفغاني يدعو إلى دولة
الإسلام الواحدة ، ولكن عرابي كان يعمل لاقامة دولة العرب الواحدة .
وكان لهذا الاختلاف بين التلميذ والأستاذ مبرراته وأسبابه . فبينما كان
الأفغاني داعية حرية واستقلال من خلال الدين وداخل إطاره ، كان عرابي
يرى أن مستغليه وجلاديه ، بالرغم من اعتناقهم للإسلام ، كانوا يتمتعون
بجنسيات أخرى ويتكلمون برطانة ! الدين ليس قومية إذن ، ولكن
العروبة هي الطريق . والذين كانوا يتسلطون على جيش مصر ، وعلى
عرابي شخصيا ، كانوا مسلمين ولم يكونوا عربا ، ولكنهم كانوا أرمين
وجراكسة وتركمانا ! والتف حول عرابي عشرات من الرجال في البداية .

محمود سامى البارودى ، شاعر فحل وضابط محترف وجركسى الأصل صهرته مصر فصار داعية للثورة ، محمود رفقى ، جركسى آخر ضاق بعنجهية أبناء جنسه وشرهم الذى بلا نهاية ، وعبدالعال حلمى ضابط عربى من السودان كانت شجاعته بلا حدود ، وتفانيه وإخلاصه مضرب الأمثال ، وأعيان كثيرون وجدوا فى الثورة المنتظرة تحقيقا لطموحاتهم وإشباعا لأطماعهم ، ومع هؤلاء يقف الشعب كله وراء عرابى ينتظر إشارة ليؤدى واجبه .

لكن سنلمح مع عرابى طرازا آخر من الزعماء : رجلا ضئيلا فقيرا ، لا يملك ثروة وليست له عائلة . ونشأ نشأة متواضعة ، فهو متشرد فى الواقع ، احترف عدة مهن فى بداية حياته ، وهو مسخ متجول يضحك الناس فى المقاهى وفى الأسواق وفى موالد الأولياء ، وهو صاحب دكان يبيع اللبان فى مدينة المنصورة ، وهو أيضا زجال يتكسب بأشعاره أحيانا ، ويهجو بها حساده وأعداءه أحيانا ! وهو فى النهاية أرزقى على باب الكريم ، يكسب ما يكفيه طعامه ، ثم يقتل وقت فراغه فى غرز الحشيش المنتشرة على ساحل البحر فى الاسكندرية ، وحول ضريح الامام أحمد البدوى فى طنطا ، وداخل أزقة الغورية فى القاهرة ، وهو يخالط أغلب الوقت أصنافا من أبناء الشعب ، حشاشين ونشالين وشيالين وقوادين ، وعاطلين بلا عمل ، وهو ، من خلال النكتة والبساطة ، سيتعلم كيف يتفاهم مع الناس ، وكيف يؤثر فيهم ، وكيف يقودهم بعد ذلك إلى الثورة . هذا هو عبدالله النديم ، أنصع صفحة فى كتاب ثوار مصر ، وهو مع عرابى وسعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبدالناصر ، المصريين الحقيقيين الذين صنعوا تاريخ بلادهم خلال العصر الحديث !

ولقد كان من الممكن أن يعيش عبدالله النديم ويموت دون أن يسمع به أحد اللهم إلا رواد المقاهى وزبائن غرز الحشيش ورواد المساجد الذين يقصدونها للنوم وليس للصلاة ، لولا أن قدميه ساقناه يوما إلى مقهى متاتيا فى العتبة ، وهناك وجد جماعة من الناس تجتمع حول رجل معمم ، قصير القامة ، ربعة القوام ، شديد الحماس ، عنيف الثورة ، وكان الرجل هو جمال الدين الأفغانى ، وكأنما عثر النديم على ضالته ، ومنذ تلك اللحظة التى وقع فيها بصره على الأفغانى ، ترك النديم خلفه دنيا الصياغة والمضياعة ، وودع إلى الأبد غرز الحشيش وحلقات الحشاشين ونذر نفسه للثورة ، وسيتقدم طريق الثوار ، وسيصبح أهم رجل فى الثورة ، وسيقلب مصر رأسا على عقب ، وستقدم السلطة البريطانية فى مصر عشرة آلاف

جنيه ذهباً ، ثمنا لرأسه ، وسيختفى بعد الثورة في بحر الشعب ، وستنقب السلطة في كل ركن وكل خرم في مصر بحثاً عنه دون أن تعثر له على أثر ! وسيظهر عبدالله النديم بعد تسع سنوات من هزيمة الثورة ، ولكنه سيظل مرفوع الرأس ، لم تنل منه الهزيمة ، ولم يحطمه الخوف ، بقيت الثورة حية في نفسه رغم الفرار والضياع والجوع والتشرد ، كأنما شعب مصر قد انصهر كله في بوتقة شديدة الحرارة ، حتى صار كله فرداً واحداً هو عبدالله النديم ، وكأنما اتحدت كل أرواح مصر فصارت روحاً واحدة تجسدت في هذا الشاعر الصعلوك المنتشر الذي سيصير لحقبة طويلة من الزمان هو مندوب مصر في برلمان الأبدية .

وإذا كان عرابي هو قائد الثورة ، فإن عبدالله النديم هو لسانها وترجمانها ، وهو العود الذي أشعل النار في كل شيء ، وعندما ركع الجميع ظل النديم منتصباً كالطود ، مرفوع الهامة كالمارد ، ولكن هذه على أية حال كانت نهاية الثورة ، أما البداية فقد كان لها شأن آخر !

وليس في التاريخ ثورة أتعس حظاً من ثورة عرابي ، سماها العامة هوجة عرابي ، وسماها الخديو خيانة عرابي ، وبعض دراويش الماركسية حملوها فوق ما تطيق وحاولوا إخضاعها لمقاييس نظرية ، ووصفوها في النهاية بأنها انقلاب عسكري تحول إلى أداة في يد طبقة كبار الملاك ؟! والحقيقة أن ثورة عرابي كانت ثورة شعبية بكل ما تحمله الكلمة من معنى ! اشترك فيها الشعب بكل طوائفه وطبقاته ، وقادها فلاح مصري أصيل سنحت له فرصة فأصبح ضابطاً في الجيش هو أحمد عرابي ، وتصدرها معه باشا مصري من ملاك الأرض هو سلطان باشا الذي خان الثورة بعد ذلك ، ولكن إنصافاً للرجل ينبغي أن نذكر له أنه أبلى في الثورة بلاء حسناً عندما كانت الثورة في الذروة ، وعندما انتكست انتكس هو الآخر ، وأثر أن ينضم إلى الجانب المنتصر ! ولكن كم من الثوار صمد إلى النهاية ؟ أو صمد بعد النهاية ؟ وسنرى مع الباشا رجلاً من أوباش الناس ، أو هكذا كان تصنيفه في السلم الاجتماعي وقتذاك . رجلاً قاد الثورة في البداية ، وظل يحملها وجدها في النهاية ومات على دين الثورة في منفاه ، ذلك هو بطل الأبطال عبدالله النديم ، وسنجد مع هؤلاء الثلاثة باشوات جراكسه ، وضباطاً من السودان ، وعمداً من الأرياف وتجار قطن ، وأصحاب مصانع ، وأصحاب دكاكين وحرفيين وصياعاً بلا عمل ! ولقد نجحت الثورة وانتصرت ، وحتى عندما حدث التدخل الأجنبي انتصرت ، ودحرت الجيش الإنكليزي عند كفر الدوار ، واضطر القائد

البريطاني المكلف بغزو مصر الى الابحار شرقا ودخول مصر من بوابة بورسعيد ، وتحالف الجميع ضد الثورة الوليدة ، وأصدر الباب العالي فرماتا بتكفير عرابي واعتباره خارجا على أصول الدين . وانضم خديو مصر الى جيش الغزاة . ومالت بعض قبائل البدو الى جانب الإنكليز وقت احتدام المعركة ، ودارت الدائرة على عرابي لأنه كان يواجه في لحظة من لحظات التاريخ الفاصلة ، الجيش البريطاني والباب العالي وخديو مصر والخونة في الداخل .. وفر عرابي بعد الهزيمة وتبعثر جيشه الى قلول ، وسلم نفسه الى جلاليه ، واقتحم عليه زنزانته في المساء واحد من أراذل الناس ، وبصق في وجهه وسبه ولعن أباه ، وقال له شامتا : « يا عرابي يا ابن الكلب تسب مقام الخديو وتخرج عن طاعته وانت لا تساوي كلبا من كلاب أفندينا » ! وجرت المحاكمة كما أراد لها الخديو أن تجري . وانهار عدد من زعماء الثورة وثبت رجال عاديون ، وصرخ عمدة من الريف في وجه القاضي مقدنا التهم الموجهة اليه ، وأقسم بكل المقدسات انه لم يرتكب شيئا من ذلك كله ، ولكنه سيفعل ذلك وأكثر من ذلك إذا عاد الزمان القهقري ونشبت الثورة من جديد ! وانتهت الثورة بهزيمة كاملة ، تدلى الشرفاء من حبال المشايخ ، وتربع الخونة على كراسي الحكم ! واختفى عبدالله النديم في زحام الناس ، واختفى عرابي وسامي البارودي وعبدالعال حلمي وغيرهم وراء المحيطة في منفى بائس ، يبعد عشرة آلاف كيلو متر عن أرض الوطن ! وعادت ربما الى عاداتها القديمة ، عادت مصر مجرد بقرة حلوب يحلب ضرعها الخديو والإنكليز والخونة ، وتبارى الكل في نهبها وتدمير روحها . وتسابق الأرزقية في سب عرابي وتلطيف سيرته ودمغ الثورة بالتهور وقلة العقل . وظن الجميع أن الدنيا دانت لهم . وأن مصر قد طابت للأكلين ! ولكن لم يمض ربع قرن على هزيمة الثورة حتى قامت تتعاب من جديد . وتنفض عنها آثار النوم . وهذا التناوب لم يلبث أن أصبح دويا وله زئير ، وكان ممثل الشعب هذه المرة فتى من الطبقة المتوسطة من القاهرة ، نحيل العود ، قوى العزيمة ، قصير العمر ، هو مصطفى كامل باشا ، وكانت المناسبة حمامة وعسكريا انجليزيا أصابته ضربة شمس . ودخلت دنشواي التاريخ كمحطة صغيرة في طريق استقلال مصر . وعادت من جديد لعبة فرنسا وانكلترا ، ووجد مصطفى كامل في فرنسا حليفا تاريخيا وتقليديا ضد نفوذ الإنكليز وخضوع الخديو لهم ، واستطاع مصطفى كامل الذي كانت المحاماة مهنته أن يفتح أعين المصريين على حقيقة الأوضاع في البلاد . وعادت الروح التي ظن الأعداء انها ماتت ، وانتشرت الندوات في

أرجاء مصر ، على مصاطب الفلاحين ، في القرى ، وعلى الأرض في حارات المدن ، وفي الصالونات في قصور الأغنياء ، ونهضت مصر من جديد تبحث عن نفسها ، وكانت صرخة مصطفى باشا « مصر للمصريين » لا يقصد بها عزل مصر عن العرب كما يزعم بعض خونة هذا الزمان ! ولكنه كان يعنى بها أن مصر للمصريين ، ليست للخديو ولا للانكليز ولا للعثمانيين ! ولكن رمز الثورة الجديدة ، مصطفى كامل ، سرعان ما سقط مريضا بالسل ، ولم يلبث أن فارق الحياة ، تاركا خلفه شعبا بدأ يستيقظ ، ومشروع ثورة لم تتم !

ولكن ، أيا كان الأمر فقد نجح مصطفى كامل في تحريك النار التي خمدت ، وفي تفتيح أعين المصريين على حقيقة ما آلت اليه الأحوال من خراب وفساد وعفن ، وحفظ الناس خطبه كأنها تنزيل من التنزيل ، مقالاته في الصحف راحت تتلى كأناشيد مقدسة ، وهبت مصر كلها تبغى النار لشهادتها وأبطالها ، وبرز اسم عرابي من جديد من جوف الزمن كبطل شعبي وليس كخائن كما حاول الخونة أن يدمغوه !

وكان مصطفى كامل ، بحق هو بداية البعث الجديد ! لقد بدأ سباق التتابع في مباراة مصر الثورة ، ولقد حمل الراية محمد فريد ، وبدأ العدو في ساحة الوطن .

وكان محمد فريد ابنا من أبناء البيوتات المصرية العريقة .. هذه البيوتات نفسها التي يؤمن بها المؤمن في الوقت الحاضر ويرى خلاص مصر على يديها ! وإذا كان هناك بعض العذر لمحمد فريد لأنه جاء في وقت مبكر من هذا القرن . فما عذر المؤمن وهو يخطط للقرن الحادى والعشرين ؟ ولعل عدم ايمان محمد فريد بدور الجماهير وعدم ثقته فيها هما اللذان دفعاه الى الهروب من مصر في وقت كانت مصر في اشد الحاجة اليه للبقاء داخلها . ومن منفاه راح يقود الثورة ، ولكنها لم تتعد قط أسوار الجرائد والندوات والمحافل العلمية ، ومهما يكن الراى في محمد فريد ، فإنه والحق يقال ادى دوره حتى النهاية وقاتل حتى جاد باخر أنفاسه ، ومات غريبا عن الوطن ، بعيدا عن الأهل والخلان ! وترك وراءه حزبا مهيبض الجناح ، سيظل بعد ذلك يعمل على هامش الحركة الوطنية ، وسيبقى بعيدا عن حركة الجماهير ، وفي معزل عن أنفاسها ! وإن ضم بين جناحيه في كل الأوقات رجالا من ذوى الوطنية الصادقة والنوايا الطيبة !

وكان القدر يدخر لمصر فلاحا آخر مثلى عرابي سيقود شعبه في واحدة من أعظم حركات التحرير في عصرنا الحاضر ، كان فلاحا من قلب الريف .

ومدنيا مارس مهنا شتى قبل أن يتعاطى مهنة المحاماة ويستقر عليها وكأنما كان القدر يدر به ويعدد ليكون محامى الشعب فى برلمان الأبدية ، ولسان حاله فى محكمة التاريخ ؛ كان سعد زغلول عاشقا للجماهير من الطراز الاول كان مؤمنا ايمانا لا حد له بحركة الجماهير ودورها . وبأنه لا طريق ولا حل إلا بها ومن خلالها ؛ ولذلك اتجه الى الشارع مباشرة وخاطبه بدون واسطة . وانتشرت ثورة ١٩١٩ بين الناس كالنار فى الهشيم . وانطلقت الجماهير كالسيل من حوارى القاهرة ، وخرجت من أعماق الريف ومن جوف الصحارى تهتف للزعيم البطل ؛ ورفعت الجماهير زعيمها الى مصاف الالهة . وانصهر الشعب كله فى بوتقة الثورة ، وعادت للأزهر أيامه المجيدة السابقة . وطغت طبقة الأفندية على سطح المجتمع . وأخرج تجار المدن وأثرياء الريف كل ما فى خزائنهم وتبرعوا به للثورة .

وانقضت السلطة البريطانية على سعد ورفاقه ونفتهم فى بداية الأمر الى مالطا . ولكن الثورة لم تتوقف . بل ازدادت عنفا وضراوة ، واندفعت الجماهير العزل من السلاح تواجه رصاص الانكليز بصدور مفتوحة . وراح الفلاحون بوسائل بدائية يفجرون خطوط السكك الحديدية ، ويقطعون اسلاك البرق ويخفون المحاصيل حتى لا تقع فى أيدي رجال السلطة . وخرجت نساء مصر لأول مرة محجبات يهتفن بحياة سعد زغلول ونالهن من رصاص الانكليز ما نال الرجال . وحتى الصبية اشتركوا فى الثورة ولقى عدد منهم حتفه ، حتى النشالون اشتركوا فى الثورة وكفوا عن نشل الناس . وترددت صرخات الناس : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » وتعالى صرخات طلبة الأزهر : « مصر والسودان لنا ، وانجلترا إن أمكننا » .

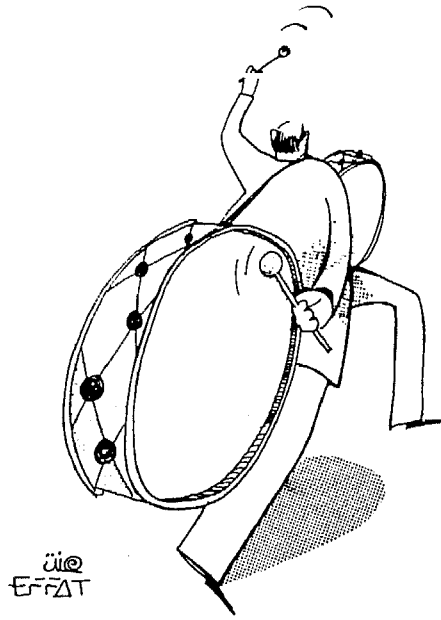
ها هو الشعب الذى أغفى فترة ، هب فجأة وهجر الحشاشون حلقات الحشيش ، وترك الشياطين أعمالهم ، ترك التلاميذ حجرات الدراسة ، وانتظم الشعب فى طابور واحد يغنى : « بلادى بلادى بلادى » ورفرفت روح عبدالله النديم على مواكب الشعب الثائر ، ولم يعد فى مصر حارة أو قرية إلا وفقدت عزيزا أو أكثر وتحولت جنازات الشهداء الى مواكب للثورة .. وسعد زغلول مشرد من منفى الى منفى ، ومن معتقل الى آخر . وها هي مصر كلها تزحف ولا سبيل الى وقفها على الاطلاق .

واندلعت شرارة الثورة وامتدت الى خارج البلاد ، ووصلت الى عقر دار الانجليز ، وارتفعت بعض الأصوات الحرة داخل الامبراطورية تنادى بوقف المذبحة ، واضطرت حكومة بريطانيا المتغطسة الى تأليف لجنة

للنظر في « اصول محمية مصر والتفكير في حل للخروج من الأزمة »!
وهكذا وصلت لجنة ملنر الى مصر ، ولكنها لم تجد إلا الاصرار على
الثورة ، ومع الاصرار والعزم . لم تقابل في أنحاء مصر إلا بالمقاطعة ..
والصمت .. والاهانة أحيانا . فقد بصق فلاح من قرية سنتريس على وجه
أحد أعضاء اللجنة عندما حاول أن ينتحى به جانبا ويسأله بعض
الأسئلة . وقال الفلاح غاضبا وهو يسرع بعيدا .. « اذهب واسأل
سعد »!!

وعادت اللجنة الى لندن .. بخفي حنين !





الفصل الرابع عشر

لا حية ولا حيلة

ولم تكن ثورة ١٩١٩ بعثا لمصر
سياسيا فقط . ولكنها كانت بعثا لمصر في
كل مجال . تفجرت العبقرية المصرية
واينعت وانجبت عشرات من الخالدين
في كل فن ، وانشق قلب الشعب عن
ملحن عظيم هو سيد درويش ، غنى أمال
الناس والأهم . واشترك في الثورة ، وكان لحنه هو تشيد الثورة ،
واختصر حياته في خمس سنوات مجيدة هي كل عمره الفني ، وودع الدنيا
بعد ما حفر اسمه في سجل الزمان . وقد بدأ الشيخ سيد درويش حياته
عامل بناء ، ثم احترف قراءة القرآن ، ثم اشتغل بالموسيقى والألحان ،
وادركته الثورة ، فألقى بنفسه في بحرها ، واشتغل فيها بعند وبلا رحمة .
وخرجت جموع الشعب تردد الحانه ، ولم يلبث ان سقط ميتا ، وشيعت
جنازته في يوم عودة الزعيم سعد زغلول من المنفى ، والتقى سيد درويش
عبقريا آخر من نوع نادر ، هو بيرم التونسي . كان مؤلفا وزجالا وصحفيا .
وكان والده تونسيا هاجر الى مصر واستقر في الاسكندرية . تزوج من فتاة
مصرية ، كان أخوها هو شيخ طائفة العريجية بالغفر . ومن هذا العصر
العربي خرج بيرم التونسي يحمل أمال وطنه الأكبر . ويرى ان الأمل يكمن
في صلاح رأس الأمة مصر . ولقد بدأ حياته هي الآخر عاملا في محل زيات
بالاسكندرية . ولكنه سرعان ما هجر المحل لينغمس مع الجماهير يشاركها
افراحها وأحزانها .. واكتشف أن الصحافة هي خير منبر لمخاطبة البسطاء
من الناس . بلغة هو الذي اخترعها وأجادها وبرع فيها . وراح يصدر
الصحف واحدة بعد الأخرى ويحررها بمجهود فردي ، والسلطة تلاحقه

وتصادر صحفه وتلغى رخصته . ولكنه لا يكل ولا يتوقف ، واذا كانت الصحف تحتاج إلى ترخيص من الحكومة فليجأ الى وسيلة أخرى لتحقيق أغراضه . وبالفعل أصدر مطبوعة غير دورية وسماها (المسلة لا جريدة ولا مجلة) وهكذا أصبح بيرم التونسي غير ملزم باستصدار تصريح من الحكومة . لأنه يصدر المسلة التي هي لا جريدة ولا مجلة . وتلجأ السلطة الى الفتوات لارهاب بيرم التونسي . ويلجأ هو الى حيلة أخرى ويحصل على الحماية الفرنسية . باعتباره من أصل تونسي . وحظ بيرم التونسي النكد أنه سبقه في التاريخ واحد من صنفه . قاده الجماهير في ثورة عرابي ، هو عبدالله النديم ، ولم تكن السلطة على استعداد للسماح بتكرار التجربة . فهذا الصنف من الرجال أخطر عليها من قادة الجيوش المحاربة . وانتهزت السلطة فرصة زجل لبيرم التونسي سب فيه السلطان فؤاد سبا مقذعا ، فسارعت الى نفيه خارج البلاد ، باعتباره اجنبيا من تونس ، وحظ بيرم التونسي حسن لأنه كان يتمتع بالحماية الفرنسية ، ولولا هذا لعلقته السلطة في حبل المشنقة ووارته التراب ، باعتباره مواطنا خرج على حدود الادب ، وارتكب تهمة العيب ، وهي التهمة التي يوجهها الحاكم دائما لكل من يخالفه رأيه ! كان الزجل الذي تسبب في نفي بيرم التونسي بصدد العلاقة المشبوهة بين سلطان مصر فؤاد . الذي أصبح ملكا فيما بعد زوجته السيدة نازلي .

« ياسابق الغليون وقلبك حامي / اطلع على القبة وسوق قدامي / تلقى العروسة شبه محمل شامي / وابوها يشبه في الشوارب عنتر » .
غير ان هذا الزجل لم يكن هو السبب الحقيقي على أية حال . كان هناك سبب آخر ، هو التفات بيرم التونسي الى مشكلة مصر الحقيقية ، وقد كان رائدا في هذا المجال . فبينما كانت مشكلة مصر في رأى الجميع مشكلة وطنية ، رأى هو بعينه الثاقبة أن المشكلة اجتماعية في المقام الأول . وان إخراج الانجليز من مصر ، وان كان هدفا ، الا انه ليس غاية في حد ذاته . ولكن الطريق الوحيد لاعادة بناء مصر هو اعادة توزيع الثروة !
لقد كانت لفظة عبقرية ، ولكنها جاءت في وقت مبكر . وربما كان بيرم التونسي وحده هو الذي سار وسط الجموع يرفع هذا الشعار !
كانت التفاتة بيرم التونسي العبقرية هي سبب نفيه . فقد رأى أمة مصر الحقيقية في تفاوت مستوى المعيشة بين الناس . وبينما كان يزداد البعض تخمة ، كان الآخرون يبحثون عن طعامهم وسط اكوام القمامة .. كالكلاب !

وكان الخواجات هم اكثر الناس حظا في الثورة واقلهم جهدا في خدمة البلاد ، مالطيون وقبارصة وأروام وأرمن وجركس يملكون الملايين وابناء البلد ليس معهم الا الستر والصبر !
وانطلق بيرم التونسى يندد بالاوضاع المقلوبة و .. « القطن برضه لمزراحى ولقرداحى / وابن البلد قاعد ماحى / في بلاده يتيم / اقطانه هو الى زرعا / والى جمعها ويوم ماباعها / ماجبته حق البرسيم / بنايوتى يقبض ويحصل / .. وده بيوصل / ويجرى دائما ما يحصل / ولا حتى بهيم » !
وعلى هذا الدرب سار بيرم التونسى يضرب على الحديد الساخن قبل ان يبرد . انه نديم آخر بدأ يتحرك ولا بد من قطع لسانه . وبالفعل ، خرج بيرم منفيا وضاع في منفاه عشرين عاما كاملة ، واذا كان ثوار ١٩١٩ قد تولوا السلطة وجلسوا بعد الثورة في مقاعد الحكام ، فإن بيرم التونسى قد فقد كل شيء ، حتى حقه في العودة للوطن !

ولم يكن بيرم التونسى هو العبقري الوحيد الذى انجبتة ثورة ١٩١٩ . كان هناك عشرات من العباقرة في كل فن . كان هناك أحمد شوقي الشاعر ، وحافظ ابراهيم . و خليل مطران شاعر من بر الشام يعيش في مصر ، ونجيب الريحانى عبقري من الموصل عاش على ضفاف النيل . وفي الأدب كان هناك طه حسين وتوفيق الحكيم وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين . وفي الرقص كانت هناك بديعة مصابنى . وفي المنولوج كان حسن فايق ومحمد عبدالقدوس . وفي الغناء كان صالح عبدالحي والشيخ محمود صبح والشيخ أمين حسنين و .. محمد عبدالوهاب ! وفي فن تلاوة القرآن كانت تتصاعد في أجواء مصر عشرات من الأصوات العبقريّة ، على رأسها صوت الشيخ محمد رفعت . أعظم من شهدت دولة التلاوة على مر الزمان ، وكان الى جانبه عشرات من العباقرة ، الشيخ محمد سلامة والشيخ الفيشاوى والشيخ القاوى والشيخ منصور بدار والشيخة منيرة العدلية والشيخ عبدالفتاح الشعشاعى والشيخ محمد الصيفى . ثم عبقري التواشيح والانشاد الدينى الشيخ على محمود .

وفي عالم النكتة والسخرية شهدت مصر في تلك الفترة أعظم من أطلقوا النكتة واستخدموها كسلاح . جيل كامل من الساخرين العظام . لو وجد أى منهم فرصة طيبة لاحتل مكانة برناردشو ومارك توين وأوسكار وايلد . وكان على رأس هؤلاء الشيخ عبدالعزيز البشرى وكان يجيد السخرية قولاً وكتابة . وحافظ ابراهيم الشاعر الذى كان شديد الكآبة عندما يكتب ، شديد السخرية عندما يتحدث ، وكان هناك إمام العبد وحسين الترنزى .

أبطال المضحكخانة الكبرى التى كانت بؤرة من بؤر الثورة ، وكان أحد مراكز المعارضة القوية ضد الاحتلال الغاشم والحكم المستبد . وكانت المضحكخانة الكبرى هى اسم أشهر مقهى فى ذلك الزمان . وكانت تقوم فى ميدان باب الخلق فى نفس المكان الذى تحتله الآن مديرية أمن القاهرة ، وكان يتردد على المقهى كل ليلة عشرات من عباقرة النكتة وعشرات آخرون من كبار الفنانين . وعلى رأسهم الشيخ أمين المهدي أعظم عازف عود فى تاريخ مصر الحديث ، والدكتور محبوب ثابت أحد معالم مصر فى ذلك الزمان . وكانت مهمة أهل النكتة هى الدخول فى قافية يختارون لها موضوعا واحدا كل ليلة وكانت فرصة لسلخ جلود ضباط جيش الاحتلال وباشاوات مصر الضالعين مع المستعمر ، ورجال السياسة الذين يعارضون زعيم البلاد سعد . وكان أبطال هذه اللبائى هم الترزى ، والعبد ، ورجلا آخر كان من طبقة الأسياد ، طبقة التجار وأصحاب الطين ، ولكنه كان بحق أكبر ساخر فى زمانه ! عيبه الوحيد أنه لم يدخل فى زحام الناس ولم يرتبط بقضية . هذا هو محمد البابلى ، أعظم من قال النكتة على طول الزمان ! . كان محمد البابلى فريدا فى شلة الساخرين ! كان أبوه شيخ تجار الجواهر فى مصر ، ولذلك جاءت نكاته لامعة كالذهب ، وهو نفسه كان يعمل ضابطا للشرطة ، وهى مهنة تحتاج الى وقار لا يتفق مع هواية السخرية والتنكيت ! ولذلك سرعان ما هجر محمد البابلى الشرطة وخلع البدلة الرسمية وتفرغ فى المضحكخانة الكبرى ، يصارع أشهر أصحاب النكتة ويصرعهم جميعا ! وكان العبد واحدا من هؤلاء المشاهير أسود اللون . وراه محمد البابلى ذات ليلة وكان يرتدى بدلة بيضاء وقد لوثتها بقعة حبر كبيرة ، فقال له : « يظهر أنك عرقت ع البدلة » !!

وكان حسين الترزى واحدا من هؤلاء المشاهير ، وفى يوم ما كان أشهر خياط لملايس الرجال ، ثم هجر المهنة وتفرغ لسهر اللبائى الملاح . وتدهورت أحواله المالية . وعكف على شرب الخمر لافيق وذات مساء رفع كأسه فى وجه محمد البابلى وصاح فى نشوة : شوف الخمرة لونها ياقوتى ازاى ؟ ورد عليه البابلى : أيوه النهاردة ياقوتى ، وبكره يا .. قوتى !! ياقوتى الأولى من اللون ، وياقوتى الأخرى من القوت ! وكان صاحب جريدة « الصاعقة » ساخرا هو الآخر ، وشرسا فى الوقت نفسه ، قام ذات مساء فغسل وجهه وبحث عن منشفة ليجفف وجهه ، وصاح البابلى : « يا صاعقة وشك مش عاوز تنشيف ، عاوز تنفيض » !

وهكذا كانت الحياة تمضى بمحمد البابلي هائلة ناعمة مستريحة !
وفجأة هبت رياح الثورة فاقتلعت كل شيء ، واجتاحت الثورة قهوة
المضحكخانة الكبرى ، وألقى عباقره النكتة بأنفسهم في بحر الثورة ، وكان
من المستحيل أن يتخلف إمام النكتة وسيدها محمد البابلي ! وانبرى
يؤلف النكت الحادة ضد لواء انجليزى ضربه المصريون فبكى . وعلق محمد
البابلي على الحادث قائلا : « شوقته الانجليزى الى واء واء واء » !!

وكان العساكر الانجليز يبيعون السلاح للمصريين ويدعون ان
المتظاهرين خطفوا السلاح منهم . وجاء محمد البابلي الى القهوة ذات مساء
ومعه مسدس ، فسأله : من أين ؟ فأجاب : « دنا خطفته من واحد
انجليزى بعشرة جنيه » !!

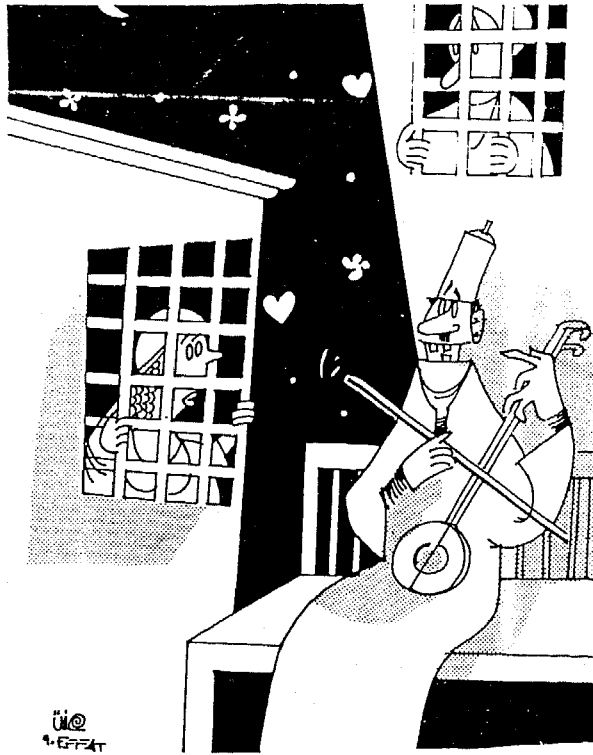
وكان احد الحاضرين فى المقهى يقرأ الجريدة بصوت عال ، ويركز على
خبر جاء فيه عن وصول قطعة من الأسطول البريطانى الى مياه
الاسكندرية ، فأشار البابلي الى رجل ذى شارب كث كان يدخن الحشيش
وينفخ دخانا كثيفا من فمه وأنفه ، وقال : « وأيه يعنى ؟ ماخنا معانا هنا
قطعة من المسطول المصرى » !!

واشتهرت نكت محمد البابلي وانتشرت بين الناس . وأصبح البابلي
خطرا على سلطة الاحتلال فسحبوه هو الآخر الى السجن ، وتكرر سجن
محمد البابلي ، فلا يكاد يخرج من السجن حتى يذهب الى سجن آخر ،
وهتف محمد البابلي ذات مساء : « ياسلام ع الواحد بقى اخر استقامة ،
من القهوة للسجن . ومن السجن للقهوة » !!

وانتهت الثورة وخرج محمد البابلي منها صفر اليدين ، فهو مجرد ضابط
شرطة متقاعد ، ثم هو أفلس أيضا لأنه أهمل ادارة املاكه فصارت الى
بوار ! وكانت الناس لاتزال منقسمة على بعضها حول سعد وعدلى . وكانوا
يطلقون على انصار سعد كلمة سعدست ، وعلى انصار عدلى كلمة عدلست ،
وسأله بعضهم بعد أن أصبح الثوار فى السلطة : انت عدلست
ولاسعدست ؟ وأجاب البابلي فى مرارة : أنا فلست !! ما أعمقها من نكتة ،
ويحضر حفلا يغنى فيه أغنية « أهل الملاح والسماح فىن أراضيهيم » ؟
ويجبى البابلي ساخرا : فى البنك العقارى . كانت أراضيه مرهونة فى
البنك .

لقد انتهت الثورة . وعاد رجال النكتة يجترون مأسيتهم فى صمت ؟





الفصل الخامس عشر

دجاء الحنجرى

واذا كنا قد تحدثنا عن صحوة مصر
الكبرى خلال ثورة ١٩١٩ . واستعرضنا
دور المقرئين والمنكئين والمطربين
والأدباء ، فإن ثمة ظاهرة ملفتة للنظر قد
حدثت خلال الثورة هي ظاهرة لغز
الحاج مصطفى ! والحاج مصطفى
مصرى فلاح لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكنه استطاع التأثير في وجدان
المصريين كما لم يستطع أحد من أبناء جيله حتى أعظم الأدباء !
ولقد نشأ الحاج مصطفى في قرية المرج ، وكان ظهوره قبل نشوب
الثورة بقليل . وخرج على الناس بموال من تأليفه هو موال حسن وتعيمة ،
بهربه الناس وشغلهم عن كل ما عداه . ثم تبع ذلك بموال مسعود وجيدة
ورشدى وإنصاف . ثم أدركه لهيب الثورة الذى كان كامنا تحت الرماد
فخرج على الناس بموال عن مأساة دنشواى ووقفه زهران وكفاح مصطفى
كامل .

ولأول مرة يتغنى الفلاحون بالبطل زهران . هذا الفتى الفلاح الذى
صورته جرائد السلطة على انه مجرم خارج على القانون . واذا بالحاج
مصطفى يقلب الصورة في اذهان الناس فيجعل منه بطلا شعبيا مات من
أجل مبدأ ودفاعا عن قضيته .
« ويوم شنق زهران كان صعب وقاته / امه وابوه فوق السطوح همه
واخواته / الى انشنق شنقوده / والى انجلد جلدوه / والى نجا فى السجن
ورموده / وزهران سبع ما أنحت هاماته / طلع المشقة ما بكى ولا اشتكى /
صرخ فيهم كنس فى الجو فارد جناحاته / وقال لعشماوى شد الحبل انا
رايح / صعد زهران للسما وبانت كراماته » .

واشتهر الحاج مصطفى وراح يتنقل بمواويله عبر الحقول بين
الفلاحين . وخلال الدروب والازقة مع اولاد البلد في القاهرة . واصبح
الحاج مصطفى خطرا على الانكليز . وضايقوه بملاحقاتهم واستجواباتهم .
ولكنه يدعى دائما انه مجرد مغنواى وأنه يقول ما لا يفهم ، فهو لا يعرف
القراءة والكتابة .

وتتوالى مواويل الحاج مصطفى كطلقات المدفع الرشاش . وتشعل النار
في جموع الناس باكثر مما تصنعه مقالات الكتاب . وقصائد الشعراء .
وخطب الزعيم . ويفتش الحاج مصطفى عن أحداث مصر في الماضي .
ويلتقط قصة لولد مصرى اصيل حارب الحكومة ووقف في وجهها وصمد
امام اجهزتها حتى سقط قتيلًا في النهاية . وياميت ندامة على سبع
شرقاوى / الاسم ادهم لكن النقب شرقاوى / ومنين أجيب ناس لمعناة
الكلام يتلوه / شبه المؤيد اذا حفظ الكلام وتلوه . انه مع كل ثائر ومع كل
متنرد وفي صف كل خارج على سلطة الدولة . وتمتد يد السلطة وتقبض
عليه . ويغيب الحاج مصطفى خلف الأسوار زمنا . ولكن غيابه لم يلفت
نظر صالونات القاهرة أو « الراى العام » السابح فوق السطح . ثم تفرج
عنه مع من افرجت عنه من الثوار . ويعود الحاج مصطفى ليرثى للناس
سعد زغلول . وياغاوى فن الشعب اسمع كلام غاية / قصة زعيم البلاد من
مبتدى لنهاية !

ويمتد عمر الحاج مصطفى ويعيش حتى يشهد ثورة ٢٣ يوليو .
ويعيش اكثر ليشهد هزيمة ١٩٦٧ . ويرى ما كتبه والفه وقد اصبح نهبا
للاداعة والتليفزيون وكل الأرزقية . والمهلبتية بعد أن أدرجوه تحت يافطة
الفولكلور ! ويصرخ الرجل ولا مجيب . ويموت قهرا وقد بلغ التسعين .
وقبل ان يلفظ انفاسه كانت كلمات اخر مواويله تتناثر على شفثيه وكان عن
هزيمة ١٩٦٧ .

كسرة عرابى لظاها في الحشا مكتوم / والس عليه الانجليز وسرهم
معلوم / لكن الى حاصل في دى الأيام ما هو معلوم / يا حسرة النفس لما
انكسر جيش مصر من تانى / ارحل بعيد عنكم وكلام على لسانى / ياناصر
الحق أرفع سيفك الجبار / واضرب ما ترحم كدابين وجبان / والرب ينصر
عبيده لو يعدلوا الميزان ! وذهب الحاج مصطفى دون كلمة رثاء !
وهكذا انتهت ثورة ١٩١٩ ووصل الثوار الى مواقع السلطة . ومهما قيل
ويقال عن ثورة ١٩ . فانها في الحقيقة حققت لمصر انجازات عظيمة ودفعت
بها للامام على طريق التقدم والاستقلال . واستطاعت الكشف عن مواهب

مصر الحقيقية . واطلقت الطاقات التي كانت كامنة تحت السطح . فخرج طلعت حرب بمشروعه الاقتصادى الوطنى الكبير . وسيزكر التاريخ لطلعت حرب أنه لعب دورا فى تاريخ مصر لا يقل أهمية عن دور سعد زغلول . وقام بنك مصر كأول مؤسسة مالية مصرية صميمة . وتتابع الشركات المصرية فى كل مجال وفى كل صناعة . وأصبح لمصر صحافة مقروءة . وقضاء شامخ وقضاة ستحفر اسماءهم فى سجل مصر بحروف من نور !

وستحول سعد زغلول من زعيم للثورة الى رئيس للوزراء . وسيثبت انه اهل للمنصب كما كان أهلا للقيادة . وسيلغى بجرة قلم استخدام اللغة الانجليزية فى المدارس ، وسيقوم بتعريب التدريس . وهى أهم خطوة اتخذتها ثورة ١٩ بعد ان تحولت الى دولة . وسيحاول أن يقيم دولة المؤسسات فى مجتمع قبل مستعمر . وسيكافح طويلا لتحجيم الملك فؤاد وتقيد سلطة الملكية . وكان سعد هو زعيم الأمة بلا منازع ، وكان من المفروض ان تتبعه كل الأمة ، وان تمضى خلفه . ولكن بعض الفئات المصابة بالعمى السياسى ، أخذت على عاتقها مهمة شق الصف الوطنى ، وأعمائها غرورها فقررت أن تقف فى وجه الزعيم ، هكذا كان مسلك الحزب الشيعوى المصرى الذى تأسس فى عام ١٩٢٤ . وبعد نجاح ثورة اكتوبر فى موسكو عام ١٩١٧ . والذى كان من أهم حسناته انه قام تحت قيادة مصرية وبكوار مصرية . وهو فى هذا يختلف كل الاختلاف عن الحزب الشيعوى المصرى الجديد . الذى قام فى بداية الأربعينيات ، والذى أسسته حفنة من اليهود . بعضهم لاشك فى ارتباطه بالحركة الصهيونية . وكذلك . فانه يمكن القول الآن ان قيادات حزب ١٩٢٤ لم تكن عميلة ولم تكن مرتبطة بحركة أجنبية ولكنهم كانوا فى الغالب وطنيين اخطاوا التحليل ! وعلى عادة الشيوعيين فى مصر قديما وحديثا . فقد استهوتهم العبارات المصكوكة ، والالفاظ الخنفشايوية . فاتهموا حكومة سعد زغلول . وهى المدعومة بأغلبية ساحقة من شعب مصر ، بأنها حكومة « الطبقة البورجوازية المتعاونة مع الاستعمار الاجنبى لتحقيق مصالح طبقية وكمبرادورية على حساب مصالح الشعب » !! وقالوا ايضا ان حكومة سعد زغلول تضم « ممثلين للشرائح العليا من اصحاب الأرض ورجال المصارف وكبار التجار الذين يطمعون فى الاحتلال محل الاجنبى واطلاق يدهم فى امتصاص دم الشعب » !



ودعا الحزب الشيوعي « الطبقة العاملة » المصرية الى الانقضاض على سعد زغلول وحزب الوفد وازاحته من الحكم واحلال ممثلي الطبقة الكادحة مكان هؤلاء الذين ركبوا موجة الثورة لتحقيق مصالحهم الشخصية ، ولم يكن هناك اكثر سذاجة من هذا الكلام . فأولا ، لم يكن في مصر طبقة عاملة بعد ، وثانيا لم يكن بين الشعب المصري عدا عشرات قليلة قد سمعت بالشيوعية . فما بالك بممثلي الطبقة الكادحة هؤلاء ؟ ! ثالثا لم يكن هناك زعيم غير سعد ولم يكن هناك حزب غير الوفد ، ولو سألت أهل قرية في أعماق الريف « من تنتخبون » ؟ لصاحوا جميعا .. سعد !!

وكان خطأ قاتلا أدى الى مأساة ، وهو حتى بالمفهوم الشيوعي خروج على برنامج العمل ، لأن الشيوعي الجيد ينبغي أن يوجد حيث توجد الجماهير . و بينما كانت الجماهير مع سعد وحوله ، اختار الحزب الشيوعي ان يقف في وجه سعد وضده . وكانت المأساة ، زحفت الجماهير على مقر الحزب في الاسكندرية واشعلت فيه النار ، وطاردت اعضائه واعتبرهم الشعب مجموعة من الخونة وعملوا معاملة الانجليز وأعوان الاستعمار .

وكان درسا بالغا . ولكن المأساة الحقيقية أن احدا لم يستفد منه فمر في تاريخ مصر كصرخة في واد !!!!

وهكذا أصبح الثوار في الحكم وتحولت الثورة الى سلطة ! أفندية الأمس أصبحوا وزراء بالرغم من أنف المعتمد البريطاني وأصبح لمصر أيضا دستور للحريات السياسية هو دستور ٢٣ . وتحول سعد زغلول الى أسطورة . فهو الذي حقق الاستقلال . وهو الذي فرض حكم الجماهير على البشوات والانجليز ! وكانت أخطر حركة تاريخية حققها سعد زغلول هي تعريب التعليم . كان التعليم قبل الثورة بالانجليزية . وأصبح التعليم باللغة العربية ، ولولا هذه الخطوة لأصبحت مصر مثل الهند : مثقفون يتكلمون انجليزية بلهجة اكسفورد . ورعاع يרטنون بلغات غير مفهومة ! وكانت أبرز ميزات سعد اكتشاف وتجنيد وتدريب عشرات من الشبان الذين سيصبح له شأن فيما بعد ، شبان واجهوا مشانق المستعمر دون أن يرمش لهم جفن . أحمد ماهر والنقراشي وسليمان غنام وعبد السلام جمعة والرجل الذي سيصبح أسطورة وسيخلف سعدا فيما بعد .. مصطفى النحاس . وكان أعظم انجازات سعد زغلول السياسية هو توحيد عنصرى الأمة ، وتحولت المساجد الى محراب للقساوسة . وتحولت الكنائس الى منابر لمشايخ الأزهر . وبرز من اقباط مصر سينوت حنا . وشاب ملتهب

الأعصاب ملتهب الوطنية حار العاطفة هو مكرم عبيد ، ولكن سعد زغلول الذى أنتجته الجماهير واجلسه على مقعد الزعامة ، سرعان ما خلعه الانجليز بعد مقتل السير لى ستاك . وراحت السلطة تتعقب الذين اغتالوا الرجل . وتقدم مصريان كشاهدى ملك للمحكمة ، كافاهما الانجليز فيما بعد . احدهما هو عبدالظاهر السمالوطى الذى اشتعل مفتشا فى شركة الترام مكافأة له على خدماته . ثم مات فى الطريق العام بعدما ضربه عمال الترام علقة ساخنة ولم يتركوه حتى لفظ اخر انفاسه ! والاخر هو محمود عزت المفتى الذى احترف الصحافة بعد ذلك ، واصدر مجلة « البعكوكه » التى اضحكت مصر زمنا طويلا . وكان الجاسوس قد هاجر من مصر بعدما ادلى بشهادته وغاب فى الخرطوم سنوات طويلة . حتى نسيه الناس . وعندما عاد الى مصر . عاد باسم اخر !

وراح سعد زغلول يناضل من جديد ضد سلطة السلطان فؤاد الذى اصبح ملكا . وضد نفوذ الانجليز . داعيا فى كل وقت الى الاحتكام للأمة مصدر السلطات .

ولكن القدر لم يمهله طويلا فمات فى عام ١٩٢٧ بعد ما ترك مصر دولة مستقلة بعدما كانت محمية . وبعدما ايقظ الأمة ، ومات بعدما شهدت الاسكندرية أول شريط سينمائى يعرض فى الشرق ، وبعدما انتجت مصر أول افلامها الطويلة وهو فيلم « قبلة فى الصحراء » لبدر لاما . وعندما مات سعد زغلول كان محمد عبدالوهاب قد بدأ يلعب كمطرب ، وكانت الفلاحة القادمة من الريف قد زحفت على القاهرة واصبحت نجمة باسم ام كلثوم ! لقد كان سعد زغلول هو النفير الذى ايقظ مصر ، وكان هو الدليل الذى وضعها على الطريق الصحيح .

لقد مات المرشد الآن ، ولكن الأمة بقيت نابضة بالحياة ! كان دستور ٢٣ ، رغم كل شيء ، هى الدرع التى حمت الأمة من عدوان الطغمة الحاكمة . وبالرغم من انه كان ثوبا فضفاضاً ، فإنه كان ثوبا على اية حال . وبفضل دستور ٢٣ استطاع كاتب مثل الشيخ عبدالعزيز البشرى ان يصف رئيس وزراء مصر . أحمد زيوار باشا ، بأنه والحمار سواء بسواء . كتب الشيخ البشرى يقول : « لو أن زيوار باشا ركب حمارا فلا أحد سوف يحدد من هو الراكب ومن هو المركوب ! وفى مقال اخر اتهم الشيخ البشرى احمد زيوار باشا رئيس وزراء مصر بأنه « لص ومرتش وينتفى ان يحاكم لولا انه سمين للغاية ، ولذلك سيحتار القضاء فى محاكمة زيوار باشا لأنه من الظلم اعتباره كله مسئولا عما اقترفت يده ، فهل هى

يده المسئولة أم كرشه الذى يطل عدة أمتار الى الأمام ، أم صدره الذى يشبه بطيخة صيفي أصابها التلف ، أم أنفه الذى يشبه الكوز ، أم رأسه الذى يشبه قرية السقا ؟

ولكن العجب ليس فيما كتبه الشيخ البشرى . ولكن العجب الحقيقي أن محكمة جنايات مصر حكمت ببراءة الكاتب ، وقالت في حثيثات حكمها إن من حق الكاتب أن يسخر من رئيس الوزراء . حيث أن رئيس الوزراء شخصية عامة يجوز للمواطنين أن يسخروا منها !!

يا سبحان الله ! لقد تدهور كل شيء في مصر الآن ، حتى أن احقر موظف عمومي فيها لم يعد يحتمل النقد وصار الكاتب مطاردا كاللص ، وهو مذهب دائما حتى تثبت براءته ! ولكن دستور ٢٣ لم يثبت طويلا ، فسرعان ما أطاحه صدقي باشا ، وكان رجلا متعاليا يكره الجماهير بطبعه ، دكتاتورا لا يحكم الا بالحديد والنار ! كان يطلق على الشعب وصف الرعاع ، وكان يرى الخلاص في الخضوع للملك والركوع للانجليزى . وجاء بدستور جديد وشكل حزبا هو حزب الشعب ، أشبه بالمغفور له حزب مصر الذى شكله ممدوح سالم ، ومات الحزبان بالسكتة القلبية ، وانزوى صدقي كما انزوى ممدوح بعيدا عن أعين الجماهير !

وقبل صدقي حاول محمد محمود باشا ، وهو صعيدى من قرية ساحل سليم ومن أسرة أرستقراطية عريقة ، أن يحكم مصر حكما مطلقا . ولكن المحاولة فشلت هي الأخرى ، والسبب هو تصدى حزب الوفد للمحاولة بقيادة زعيم مصر الجديد مصطفى النحاس . وكان مصطفى النحاس يؤمن ايمانا لاحد له بالجماهير . وكان يرى الخلاص في الانصات الى همس الامة وتحقيق رغبات الشعب . وكان رجلا صلبا عنيدا مؤمنا بأن الشعب اقوى من الملك ومن الاستعمار ومن أجهزة السلطة مجتمعة . وفي سبيل الشعب دخل النحاس معارك رهيبة خاضها ضد الملك فؤاد وضد الملك فاروق وضد الأحزاب الرجعية التى شكلها الملك من بعض زعماء الوفد القدامى وحتى بعض محترمي السياسة الذى اكتشفوا ان بقاءهم في السلطة رهن بمعادة الجماهير !

تكون الحزب السعدى من فلول حزب الوفد وقام حزب الأحرار الدستوريين على اكتاف أبناء البيوتات الأرستقراطية . ثم دخل الحلية حزب فاشستى هو حزب مصر الفتاة ، وهو حزب تعاون مع الملك ومع المندوب السامى . وكان هدفه الوحيد هدم الوفد والنيل من زعامة مصطفى النحاس .

ثم بدأ يدخل الساحة حزب آخر جديد . حزب لا يحمل هذا الاسم . وان
كان اخطر احزاب المرحلة كلها . وقد تكون في هدوء وعلى مهل وبقيادة رجل
عبقري في التنظيم هو حسن البنا . وكان هذا هو حزب الاخوان المسلمين .





الفصل السادس عشر

هتلر المصري

الى جانب الاخوان المسلمين كان هناك
حزب آخر ، انشا تنظيما عسكريا .
واعتمد على إثارة الشارع دون فكر محدد
على الاطلاق ، هو حزب مصر الفتاة .
وكان يقوده رجل عاطفى النزعة ، يؤيد
بلا حدود ويعارض بلا منطق . وإذا
دخل فى عراك مع أحد دمره ، وإذا عقد صداقة مع أحد دمره .. ودمر
نفسه ! كان مثله الاعلى هتلر وموسوليني وكان الحزب الأمثل عنده هو
الحزب النازى . ومن عجب ان هذا الحزب مر عليه شباب الثلاثينيات
والاربعينيات كلهم وبلا استثناء حتى جمال عبدالناصر وانور السادات بل
انه الحزب المصرى الوحيد من احزاب العصر الملكى الذى سمح له
السادات بالعمل ، وقام فى عهده بدور فى المعارضة ويقوده ابراهيم شكرى
أحد اقطاب الحزب زمان !

ولقد ضم هذا الحزب من الماضى عشرات من السياسيين الذين احترقوا
العمل السياسى وكان الحزب على صلات طيبة بجميع احزاب الاقلية وان
اعلن غير ذلك . وارتمى فترة من الوقت فى احضان السراى . ولكنه وقف
موقف العداء من كل التنظيمات العمالية والشعبية واعتبر السياسة
كهونا لايجوز الا للساداة أعضاء حزب مصر الفتاة .

ورغم كل المحاولات التى بذلها الحزب . ورغم التنظيمات الفاشية
والاستعراضات العسكرية فان الحزب ظل بعيدا عن احضان الجماهير .
ولم يصل من اعضائه الى مجلس النواب والحزب فى ازهى فترات ال نائب
واحد يتيم هو ابراهيم شكرى . واشترك الحزب فى معركة الكفاح المسلح

ضد الانجليز في عام ١٩٥١ . وقضت السلطة الملكية على جميع اعضاء
الحزب ، وقدمت رئيس الحزب احمد حسين للمحاكمة بتهمة حريق
القاهرة . ودلت الشواهد كلها على أن الملك مصمم على تصفية الحزب
واعدام رئيسه .

ولولا ثورة ٢٣ يوليو لثم كل شيء وسار كما اراد له الملك . الا ان الثورة
فاجأت الجميع ، فأفرجت عن أحمد حسين وعن كل المسجونين . وتصور
احمد حسين ان الثورة قامت من أجله ، وأنها خرجت من جيبه ، وحاول ان
يفرض الوصاية عليها ، لسبب عاطفى غريب ، وهو أن جمال عبدالناصر
عندما كان تلميذا في السادسة عشرة من عمره التحق فترة لاتزيد على شهر
في صفوف مصر الفتاة ، ثم انصرف عنه زاهدا عندما اكتشف ان الحزب
ليس مؤهلا للقيادة .

ولكن احمد حسين الذى كان مثله الأعلى الهرهتلر ، اعتبر ان عبدالناصر
عضو في الحزب ، وأن الثورة ينبغي ان ترفعه الى منصب الرئيس وأن
تضعه على رأس الثورة .

وعندما وقع الخلاف بين أحمد حسين والثورة . سمحت له الثورة
بمغادرة مصر فطاف ببعض بلاد الشرق داعيا الشعب المصرى الى الاطاحة
بعبدالناصر والانتفاضة ضد الحكم العسكرى ودعوة « الزعيم المنتظر »
احمد حسين ليقود البلاد نحو الاخاء والرخاء والسعادة !!

ولكن ما حدث كان غير ما توقع الزعيم المنتظر ، عاد بعد فترة الى مصر ،
وعاش في الظل حتى مات عبدالناصر . ثم عاد للظهور في دولة الانفتاح ،
ليقوم بدور محدود للغاية . هو تدبيح مقالات كلها مديح واشادة بعظمة
السادات ونبوغ السادات ولكنه فجأة وبلا مقدمات انقلب على الزعيم
المنتظر !!

□ □ □

شمشون الاخوان !

كان حسن البنا زعيما من طراز لينين وجمال عبدالناصر ، كان له هدف واحد ومحدد هو السلطة ! وكان يدرك ان السلطة ليست هي تصفيق الجماهير ، ولكنها القبض بقوة على زمام السلطة وتوجيهها في الطريق الذي يريد .. ولذلك راح يعمل في صمت وفي دأب خمسة عشر عاما طويلة ، يادنا رحلته الاسطورية من مدينة الاسماعيلية ، وبعد عشرين عاما من بدء الدعوة كان عشرات الألوف من الاتباع والمريدين يدينون بالولاء والطاعة ، وكانوا منتشرين في طول مصر وعرضها ، ومعينين داخل تنظيم حديدي لدرجة انه كان اذا عطس في بورسعيد قال له من في أسوان .. يرحمك الله !! وكان الرجل داهية في السياسة لعب أدوارا مع السلطة وأدوارا ضدها . ولكنه حرص دائما على أن يكون في حدود الشرعية على قدر المستطاع . ولا يستدرج الى معركة الا في الوقت المناسب وفي المكان الذي يحدده بنفسه ! ولذلك سهره احيانا في صورة المؤيد للملك ، و احيانا يقف الى جانب صدقي باشا . وفي بعض الاحيان على الحياد بين الجميع ! وانتهر الرجل فرصة حرب فلسطين ليدفع بأعداد لاحصر لها من شباب الاخوان الى خط النار . ليتقنوا فنون الحرب ويتمرسوا على القتال والموت في سبيل الله . ولكي يتمكن بعد ذلك من تكوين جيش الخلاص الذي سيقوده على طريق الاسلام ليقيم مملكة الله !

واستفاد الاخوان من حرب فلسطين ، استفادوا خبرات وممارسات وكوادر لاحصر لها من الجنود والقادة ، والمدرين على احدث الاسلحة ، وليس كالحرب مصنعا لتجربة الرجال وتخريج الرجال !!
والحق أقول ان الاخوان المسلمين اثبتوا في حرب فلسطين قدرتهم الفذة على خوص الحرب ، واستعدادهم الكامل للموت في سبيل ما يؤمنون به ، وكانوا غاية في الشجاعة والطاعة والانضباط ولكن مأساة حسن البنا أن الشبان الذين دفعهم هو بنفسه الى خط النار ليعدهم لليوم الموعود ، هؤلاء الشبان انفسهم اكتشفوا في لهيب المعركة ان المعركة الحقيقية في القاهرة . وهم في هذا يتفقون مع الامام ، مع اختلاف بسيط هو انهم اكتشفوا أيضا ان أسلوب البنا ليس هو الأسلوب المناسب ، وان المعركة مع النظام قد حان أوانها ، وان الاسراع في التنفيذ هو غاية المراد من رب العباد !!

وهكذا بدأت المعركة بين جيش الأخوان والحكومة . وبدأتها الحكومة باستفزازات من جانبها كان حسن البنا يرى عدم الاستجابة لها لأن الموعد الذى حدده لم يحزن بعد .

واحتدمت المعركة بين الحكومة والأخوان ، والبعض يقول ان كل شيء دار من خلف ظهر الامام والبعض الآخر يؤكد ان كل شيء تم يعلم الامام وبتيديره .

وأيا كان الامر ، فقد سقط الأخوان في الطعم ، وبدأوا المعركة قبل الألوان . وتساقط الضحايا من الجانبين . واتسعت الدائرة فشملت رئيس وزراء مصر محمود فهمى النقراشى ، وكان لابد ان يدفع البنا الثمن . وأقدمت الحكومة على استدراجه وقتلته في الطريق العام وبمسدسات حكومية وقتلة من رجال الأمن العام ، وحشر الألوف منهم في السجون . واضطر بعضهم الى الهروب من مصر . وظهرت قصة العسكرى الأسود لأول مرة في عام ١٩٤٩ . حين استعانت به الحكومة كالة تعذيب بشرية لم يعرف لها مثيل على طول التاريخ !

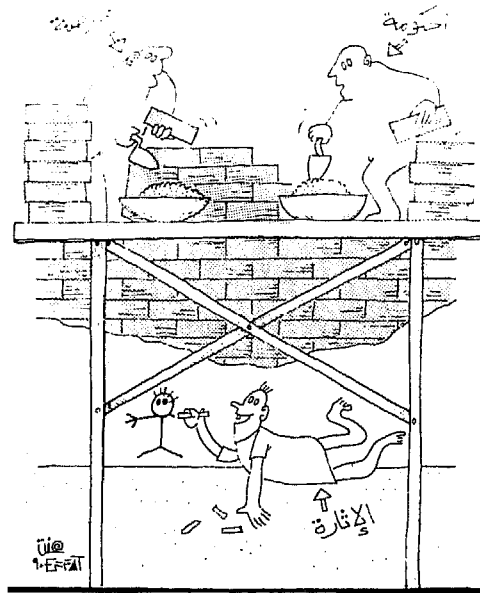
وظن البعض ان صفحة الأخوان المسلمين قد انطوت ، وتصور البعض انها مجرد معركة مثل أحد يأتى بعدها فتح مكة وأنه لفتح مبين ! ولكن المستقبل اثبت انها كانت احدا ، ثم جاءت بعدها أحد أخرى وأخيرة . وكانت النتيجة قصم ظهر الإخوان كحركة ، ودخولها التاريخ كمناساة من مأسى العصر الحديث !

ولكن مأساة الإخوان كانت من نوع فريد ، وهو سبب أودى بكثيرين منذ شمشون الجبار والى محمد على باشا الكبير !

وهو درس يتكرر كثيرا دون أن يستفيد منه الا النزر اليسير ، وهو درس أشبه بمادة الألعاب الرياضية يمارسها الجميع ثم يتركها الجميع بعد ذلك ! غير أن مأساة الإخوان انهم كرروا التجربة مرتين في جيل واحد . مثل النرجسية المركبة ، إذ رأى نرجس صورته في مياه البحيرة فاعجب بها وصام عن الطعام والشراب وغاب عن الوجود متأملا صورته وهامت البحيرة أيضا بنفسها لأنها كانت تتأمل صورتها في عين نرجس أيضا في غرام شديد .. حتى مات ، وعندما مات جفت البحيرة وماتت أيضا !!

لقد تضاعفت المأساة .. والسبب واحد !





الفصل السابع عشر

دعاة الورد

وهكذا جاء عام ١٩٤٩ ومصر مختنقة
ومختلفة وممزقة وحالها حال . حكومات
الأقلية تحكم البلاد منذ خمس سنوات ،
والوفد مطرود ومنبوذ ومحاصر من
السراى ومن الانكليز ومن كل الجهات .
ولكن لحسن حظ مصر ، فقد صور
العملاء للملك « الصالح » ان الوفد كحزب قد انتهى وأن الجماهير التي
كانت تلتف به قد انفضت من حوله ! وصدق الملك الأكذوبة فدعا الى
انتخابات حرة لكى يضع كل انسان فى حجمه ، ولكى يمنح الشعب فرصة
القضاء على حزب الوفد ، وجاء حسين سرى باشا ليجرى الانتخابات ومعه
صهره محمد هاشم . وتالفت وزارة ائتلافية فى البداية ، ثم لم تلبث الوزارة
ان انفرط عقدها وحلت محلها وزارة من بعض المستقلين والمستورزين
والأرزية . وجرت انتخابات لم تشهد مصر لها مثيلا ، انتخابات حرة
بالفعل ، وفى جو من الارهاب النفسى ضد الوفد لم يحدث له مثيل من قبل .
انطلقت الجرائد والمجلات الموالية للسراى تهاجم مصطفى النحاس زعيم
الوفد وتنهش لحمه وتنهش عرضه ، ثم جاءت النتيجة فى النهاية لتضع كل
انسان فى حجمه بالفعل . لقد اكتسح الوفد الانتخابات بأغلبية ساحقة ،
وسقط باشوات واصحاب ملايين واصحاب عمارات واطيان أمام أفندية
مجهولين ومدرسين فى التعليم الثانوى ومشايخ صغار فى الأزهر . وسقط
مرشح الأخوان المسلمين فى الجيزة الاخ مصطفى مؤمن ، ولحق به المرشح
الشيوعى الوحيد ، ولم ينجح من حزب مصر الفتاة الا مرشح واحد

نجاحه في الدائرة مضمون بسبب العصبية والعائلة وليس بسبب الأحزاب والمبادئ . وجاء الوفد الى الحكم بعد غيبة طويلة . وجاء معه الرخاء والاستقرار . وجاءت الحرية ايضا .. وانطلقت صحافة المعارضة تكشف كل شيء وتهاجم كل شيء ابتداء من جلالة الملك الصالح والى وزير الداخلية فؤاد سراج الدين باشا .

ولعبت صحف روزاليوسف والجمهور المصرى والاشتراكية والمصرى الى حد ما دورا رهيبا وعظيما في تقويض دعائم النظام الفاسد . واشترك إحسان عبدالقدوس وحلمى سلام في كشف مايسمى بقضية الأسلحة الفاسدة . وهى الأسلحة التى اشتراها الملك ويطانته وسلح بها الجيش المصرى في حرب فلسطين ، والتى كانت السبب الأوحد في هزيمة جيش مصر وطلانه تقف على أبواب تل أبيب ! وحاول الملك الصالح عندئذ لجم المعارضة ووقفها عند حدها ، وحرك أحد النواب لتقديم مشروع قانون سمي بمشروع حظر أنباء القصر . وهاجت مصر وماجت ووقفت ولم تقعد قط . واستطاع مجلس نواب مصر العظيم في تلك الفترة دحر المشروع الملكى . وخرجت جريدة المصرى يوم التصويت على المشروع بصورة الموافقين وقد لطختهم بالسواد !

وفي هذا اليوم المحموم وقف مصطفى النحاس وكان قد تعدى الستين بكثير ليعلن على شعب مصر نبأ إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ مع بريطانيا العظمى .

وكانت بريطانيا في ذلك الحين لم تزل عظيمة وأسطولها يرهب جميع أقطار الأرض . وجيشها الذى لا يقهر يحتل نصف المعمورة ! « ومن أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦ . ومن أجل مصر أعلن إلغاء المعاهدة » . وتحولت مصر الى بركان من النار . هدرت الجماهير في الشوارع . وانطلقت الجموع تهاجم معسكرات الانجليز في القناة . ووقف رجال الشرطة موقفا سيظل خالدا في تاريخ مصر . وتكونت الجماعات الفدائية . واشترك في المعركة كل الاحزاب وكل الاتجاهات . ودخل المعركة انتهازيون ولصوص وقطاع طريق . ووقف وزير الداخلية الى جانب الجميع يدعمهم بالاسلح وبالمال . وسقط الف قتيل مصرى نصفهم من رجال الشرطة ونصفهم من الطلبة والعمال ومختلف طوائف الشعب . وبدا أن الانكيز في محنة ، وأن الملك في مأزق ، وكان لابد من حل .



هدية السماء

وكان الحل هو إشعال النار في القاهرة وقد جاءت الفرصة عندما هجمت دبابات الانجليز على محافظة الاسماعيلية ودكتها دكا . وتصدى لها الف جندي مصرى من جنود الشرطة بأسلحة قديمة ووسائل بدائية . وكان النصر بالطبع لدبابات السنتريون ومدافع الهاوزر . وسقط في المعركة نحو مائة شهيد من عساكر الشرطة . ومثلهم من أفراد الشعب . وقتل عشرون جنديا من عساكر الجيش البريطانى أحدهم ضابط برتبة عقيد !

وثارت الجماهير في القاهرة احتجاجا على المجزرة . واشترك في المظاهرات الصاخبة مئات من جنود الشرطة بقيادة ضابط برتبة نقيب هو عبدالهادى نجم الدين . ولكن الأيدي القذرة استغلت الفرصة واشعلت النار في القاهرة من خلف ظهر المتظاهرين ! واكلت النار فيما أكلت فندق شبرد الشهير ملتقى حكام مصر من انجليز ووطنيين ، والتهمت شارع ٢٦ يوليو (قواد سابقا) ودمرت قلب المدينة وامتدت النار الى الضواحي حتى وصلت الى حلوان .

وتتمت المؤامرة فصولا حين أمر الملك قوات الجيش باحتلال المدينة لحفظ النظام وعندما سيطرت القوات الموالية للملك على العاصمة اصدر قرارا باقالة وزارة مصطفى النحاس باشا ، واستدعى رجل المناسبات الجاهز والمستعد على ماهر باشا ، وبدا أن الأمور قد عادت الى وضعها الطبيعى في نظر القصر والانجليز !

ولكن على ماهر ارتكب غلطة العمر عندما وقف امام مجلس النواب يقدم حكومته فاشاد بخير خلف مصطفى النحاس . وكانت غلطة لأنه لم يدرك أن حريق القاهرة لم يستهدف أحدا الا مصطفى النحاس ، ولم يكن يهدف الا لازاحة حكومة الوفد وطردها من الميدان ! ولذلك سرعان ما أقيـل على ماهر باشا وجاء أحمد نجيب الهلالي باشا لتبدو جميع عورات النظام مكشوفة وبلا شيء يسترها على الإطلاق ! فقد آلف الوزارة من بعض بطانة الملك السابق ، وبعض الموترين من حزب الوفد . وبدلا من التحرير رفع الهلالي شعار التطهير ولم يكن المقصود به تطهير البلاد من عساكر الاحتلال ، ولكن تطهيرها من حزب الوفد أولا ، ومن الشيوعيين والوطنيين والديمقراطيين ثانيا ، ومن المشايخين عموما .. وفي كل حال !

واطبقت سجون مصر على زهرة شباب الأمة وسيق الفدائيون الى المعتقلات بعد تجريدهم من السلاح ، وفرضت الرقابة الصارمة على الصحف القومية ، واطبق الصمت الرهيب على مصر ، وغاص العمل السياسى تحت الأرض ، وعادت مصر من جديد الى دوامة الارهاب ، وانتشر الهمس بين الناس حتى أصبح الهمس لغطا ثم ضجيجا .. واصبح مطلب الجميع سقوط الملك !

ولكن وزارة الهلالي لم تلبث ان ترنحت ثم عادت من جديد ، وبعضوين جديدين اثارا لغطا شديدا بين الجماهير ، كريم ثابت وزيرا للقصر الملكي ، وصهر الملك فاروق وزيرا للحربية ، وكان شابا في مقتبل العمر ، وزوجا للأمباطورة السابقة فوزية التى كانت يوما ما امباطورة وزوجة لشاه إيران !!

وهكذا أصبح الحكم فى مصر أضحوكة وباتت السلطة فى معزل عن الجماهير ، ووقفت الجماهير بعيدا عن السلطة فى حذر ومتربقة فى غيظ . ولكن لم تمض عدة أيام على قيام الوزارة الجديدة التى كانت تستنشق هواء البحر على شاطئ الاسكندرية حتى فوجئ الناس بقيام أعظم وأمجد حدث فى تاريخ مصر الحديث وهو قيام ثورة ٢٣ يوليو . وكانت هدية السماء لشعب مصر .





الفصل الأخير

إلى أين؟

ولم تفاجئ الثورة الجماهير فقط ،
ولكنها فاجأت الجميع ، فاجأت الملك
الذى كان يثق ثقة مطلقة فى قائده العام
محمد حيدر باشا وفى عينه داخل الجيش
حسين سرى عامر ، ثم اكتشف الملك فى
صباح يوم ٢٣ يوليو ان نصف مخابراته
اعضاء فى تنظيم الضباط الأحرار ، وأن النصف الآخر كان مستغرقا فى
اللذة حتى النخاع !

واستنجد الملك بالسفير الأمريكى المستر كافرى الذى لم يكن أقل مفاجأة
من الملك ومن الجماهير . واستنجد بالجيش الانجليزى الذى كان مرابطا فى
القناة .

ولكن لا أحد على ظهر الأرض كان يستطيع انقاذ الملك كان العطب قد دب
فى جسم الملكية حتى العظم ، وكان السوس قد نخر فى قوائم النظام ،
ولذلك كان الانهيار حتميا . وكان السقوط هو المصير . ولم يصمد الملك أكثر
من أربعة أيام . ولم تصمد الملكية أكثر من عدة أشهر ، وسارعت الأحزاب
القديمة الى الظهور من جديد . وكان هناك أمل فى حزب الوفد لكى يعود إلى
الواجهة من جديد لتحقيق الأحلام التى طالما داعبت خيال الجماهير . ولكن
حزب الوفد كان قد تغير ، كان حزب البشوات وليس حزب الجماهير .
ولذلك كان يبدو فى اليسار عندما كان الملك فى السلطة ، أما فى عهد الجيش
فقد بدا الوفد أقل ثورية وأقل اندفاعا على طريق العدالة الاجتماعية .

وكان الإصلاح الزراعى هو الصخرة التى تحطمت عليها آمال الجماهير فى عودة الوفد الى الواجهة . وبدا ان العهد القديم قد انطوى بملكه وزعمائه واحزابه وقيمه وان عهدا جديدا قد اطل على مصر . ولكن هذا العهد الجديد لم يستقر بالفعل ولم يتبلور بالفعل الا بعد ذلك بسنوات . فقد كان فى السلطة عدد من ضباط الجيش وكان يبدو للجميع انهم مجموعة من الشبان يقودهم رجل عجوز من لواءات الملك السابق هو محمد نجيب . وكان محمد نجيب صاحب الابتسامة الطيبة والتلقائية التى تقرب بشدة من تلقائية مصطفى النحاس ، قد تسلل الى قلوب الجماهير التى كانت متعطشة الى الحرية والعدالة الاجتماعية ، وقد اندفعت الملايين خلف موكبته تحاول لمس يده أو تحظى بكلمة تخرج من فمه . وهذا ايضا شارك فى عملية تغيير محمد نجيب لواء الجيش الذى عاش منضبطا يعانى الوحدة والعزلة والفراغ . فقد تحول فجأة من ضابط جيش الى زعيم . ومن رجل يتلقى الأوامر الى رجل فى يده كل سلطان . ومحنة أن يتحول رجل من قائد عسكري الى قائد شعب .. محنة ما لم يكن الرجل مسلحا بنظرية أو منبثقا من صفوف حزب . أو ظاهرة كنبليون وعبدالناصر . ولذلك سيتصرف محمد نجيب بعد ذلك كملك مصر الجديد . وسيتمادر على الثورة التى هو رمزها . وسيحاول الانفراد بالسلطة بمساعدة عناصر من الوفد وبالاتفاق مع قيادة الاخوان والجناح اليسارى من الضباط الأحرار . وكان عام ١٩٥٤ هو أخطر الأعوام فى تاريخ مصر . وجدت الثورة نفسها فى مأزق . لقد رفع أعداء الشعب شعارا تعشقه الجماهير هو شعار الديمقراطية . وطالبوا بعودة البرلمان والدستور الدائم والسمن بحرية تشكيل الأحزاب .

واضطرت الثورة الى التراجع أمام إجماع الشعب على العودة الى الديمقراطية بنفس الشكل الذى كان الملك قد ابتكره ولم ينفذه قط . وانقسم شعب مصر لأول مرة فى تاريخه ، وبدا أن حربا أهلية على الأبواب . وأن الثورة البيضاء فى طريقها لتصبغ بلون الدم ! وعندما أطل شهر مارس (آذار) ١٩٥٤ كان الاخوان قد أعادوا تنظيم صفوفهم ، وعادت الأحزاب القديمة فتكتلت من جديد وفى هذه المرة نسيت خلافاتها وتجاهلت الفروق بينها واختارت فؤاد سراج الدين قائدا لحركتها الأخيرة والحاسمة . وتحرك الشيوعيون ولكن ليس فى اتجاه الثورة ، وانما فى اتجاه الاخوان والاحزاب . وفى الجهة المقابلة كانت الثورة تقف

منغمسة في الخلاف حتى أذنيها. لقد حانت ساعة الصفر ، ومصر في مفترق الطريق . فإما الى الماضي . وإما الى .. ؟ الى أين ؟ لا أحد يعرف على وجه التحديد !!

وهكذا كان عام ١٩٥٤ هو عام المواجهة الحاسمة بين الثورة وأعدائها . أو بمعنى آخر بين عبدالناصر وأعدائه . ولم يكن هؤلاء الأعداء الا كل أحزاب مصر وعلى رأسها حزب الوفد والأخوان المسلمين والشيوعيون وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة وعدد اخر من الضباط الاحرار ! ولم تكن هذه الجبهة ضد عبدالناصر بالمعنى السياسى للجبهة ، ولكنها كانت « هوجة » اشترك فيها الجميع .. وكل يغنى على ليلاه ! كان الشيوعيون يضغطون للاشتراك فى السلطة . وكان الوفد يرفع شعار « لازعيم الا النحاس » !!

وكان الإخوان المسلمين يشعرون بغصة لاعتقادهم بأنهم هم الذين صنعوا عبدالناصر ، وأن عبدالناصر المتمرد الذى رفض الوصاية هو تمثال حتى للغدر وعدم الوفاء ! بالإضافة الى انهم كانوا يشعرون فى الوقت نفسه بأنهم أقوى من عبدالناصر وانهم قادرون على الاطاحة به فى أية لحظة ! وكان رجال احزاب الأقلية عملاء القصر الملكى والسفارة البريطانية يحلمون بالمجد القديم ويرغبون فى إعادة العهد الذى ولى ! وكان بعض الضباط الاحرار الذين اشتركوا فى الاعداد للثورة يشعرون بأنهم احق من عبدالناصر بالسلطة . وأن الادوار التى وزعت عليهم أقل من الدور الذى قاموا به ! وكان اغلب هؤلاء قد اشتركوا فى الثورة كلون من الوان المغامرة ، ولم يكن لهم اتجاه سياسى معين ، أو حتى مجرد استعداد لذلك !! وكان بعضهم قد اسرع صبيحة يوم الثورة للاستيلاء على مواقع حساسة فى الدولة لم يكونوا يستحقونها . وقد تدخل عبدالناصر بقسوة فى بعض الحالات لتصحيح الاوضاع كما حدث مع ضابط صغير احترف بعد ذلك مهنة الصحافة .

ان حدث بعد أيام من قيام الثورة ان اقتحم وزارة الداخلية ونصب من نفسه مسئولا عنها . وراح يلقي التعليمات وينهر كبار الضباط ، ويصرخ فى وجه كبار الموظفين ، الى ان استقال أحدهم بسبب المهانة البالغة التى الحقها به مندوب القيادة !! وكان الموظف الكبير الذى استقال ، يدعى ابراهيم بك حبيب وكان يشغل منصب مدير عام التفتيش بالوزارة وهو ثالث منصب فى الوزارة بعد الوزير والوكيل ، وكان الرجل حسن السمعة

شديد الاستقامة ومن عائلة من أشرف وأقدم عائلات مصر . ولذلك تساعل
عبدالناصر عن سر استقالة الرجل .

فلما أجابه الذين سألهم : ان السبب هو السلوك السيئ لمدنوب
القيادة ! تساعل عبدالناصر بدوره : ومن هو مدنوب القيادة ؟ وهنا
اكتشف الجميع انه فرض نفسه على وزارة الداخلية بدون اذن من أحد ،
وانه اصدر أوامر اعتقال وأوامر إفراج والحق البعض بالوظائف وأجبر
البعض على الاستقالة دون أن يكون له أى حق فى هذا العمل على الإطلاق !!
وهكذا انتهى الأمر بطرده وعودة ابراهيم بك حبيب الى منصبه فى الوزارة !
حالات كثيرة من هذا النوع تدخل فيها عبدالناصر وحسمها بحزم واحيانا
يقسوة . وضحايا هذه الحوادث من الضباط الأحرار انضمت الى جبهة
المعارضة ورفعت هى الأخرى شعار عودة الجيش الى التكنات والسماح
بعودة الأحزاب القديمة !

وفى هذه الظروف الحالية اثبت عبدالناصر انه مهندس سياسى من طراز
رفيع . اعلن قبوله بكل طلبات المعارضة ، وسمح بقيام الأحزاب القديمة ،
وحدد موعدا لأجراء الانتخابات . وهكذا وضع عبدالناصر المعارضة ضد
تحت الأضواء . واستطاع بحركة ذكية كشف الأعداء المرتدين ملابس
الإصدقاء . وقبل الموعد المحدد للانتخابات ، وبينما الكل منهمك فى الأعداد
لها حدث الإضراب الكبير الذى قاده اتحاد العمال ، وسيزكر التاريخ
لبضعة افراد قلائل دورهم المشرف فى تلك الفترة ، وهو الدور الذى حافظ
على الثورة ، ووجه ضربة قاصمة الى بقايا العهد القديم . من بين هؤلاء
عامل فى شركة الترام اسمه صاوى احمد صاوى . وقد لقى جزاء سنمار
بعد ذلك واختفى فى زحام الحياة !! ثم الطحاوى وطعيمة وهما من رجال
الصف الثانى من تنظيم الضباط الأحرار ، وكمال حسين من مجلس قيادة
الثورة ، وضابط بوليس يدعى صلاح الدسوقي ، والغريب فى الأمر ، انه فى
تلك الأيام وقف جميع الصحفيين المصريين فى الجبهة المعادية لعبدالناصر
ولم يقف الى جانبه الا مصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل !
وهكذا استطاع عبدالناصر محاصرة جميع أعدائه وسحقهم بضربة
واحدة . واستطاع ان يصفى حساباته مع الجميع وخصوصا مع
الصحافة . فقد قامت محكمة الثورة على الفور ، واختار نخبة من رجال
السياسة القدامى وقدمهم للمحاكمة ، وكان على رأس هؤلاء فؤاد سراج
الدين ومحمود سليمان غنام من الوفد ، ثم قامت محكمة الشعب حيث أعدم
سبعة من رجال الأخوان المسلمين . وصدر قرار بوقف جريدة المصرى عن

الصدور . وهرب صاحبها محمود أبو الفتح ورئيس تحريرها أحمد أبو الفتح إلى الخارج ! وأغلقت جريدة الجمهور المصري وزج بصاحبها في السجن لمدة خمسة عشر عاما ، ودخل إحسان عبدالقدوس واسماعيل الحبروك السجن الحربي . وبعد ذلك استطاع عبدالناصر إحكام قبضته على السلطة ودانت له مصر .

ولذلك ، سيظل عام ١٩٥٤ واحدا من أخطر الأعوام في تاريخ مصر . فها هو عام الثورة الحقيقي . وفيه دخلت مصر عصرا جديدا وهو الذي انتهى بها إلى تحقيق المعجزات ولولاه لما كان انتصار ١٩٥٦ ، ولا كانت الوحدة ، ولا كانت الاشتراكية ، ولولاه لما كانت مصر القومية والعربية وزعيمة العالم الثالث ومفجرة الثورات في كل مكان ! لقد كان عام انتصار عبدالناصر ، ولذلك كان أعظم وأمجد الأعوام .



« تمت »

محتويات الكتاب

صفحة	
٣	طوبى .. وطوبى ..
٥	الفسطاط .. لماذا ؟
١٣	مشيئة الأقدار ..
٢١	نهر الجنة ..
٢٩	سيف المعز وذهبه ..
٣٧	الشعر الحلمتيشى ..
٤٥	العبرة والدرس ..
٥٣	وهل يموت النهر ؟
٦٣	الخيانة يامسلمين ..
٧١	طبول الثورة ..
٧٩	وجاء بونايرت ..
٨٧	الأرزقية والأبطال ..
٩٥	ومات الألفى ..
١٠٥	وجاء الأفغانى ..
١١٣	الصعلوك فى الثورة !!
١٢٣	لا جريدة ولا مجلة ..
١٣١	وجاء الخنجورى ..
١٤١	هتلر المصرى ..
١٤٧	وعاد الوفد ..
١٥٣	إلى أين ؟



محمود السعدنى

... سوف تكون هناك الف شهادة على هذا
العصر العاصف الذى نعيشه ، ولكن تبقى
شهادة محمود السعدنى وثيقة وحدها صديقة
أصيلة تفيض حيوية ومصرية ، شهادة ابن
الشعب والحارة الذى قامت له الثورة وعاشت
بصموده والولد الشقى لا يشهد الاحداث عن
بعد ، ولا يتجنبها أويتقى شرها ولكنه يندفع
ويشارك ويزج بنفسه ويحشر انفه فى كل مشكلة
ويقحم نفسه فى كل مظاهره أو خناقة ولا بد له ان
يتكعبل احيانا وان يدفع ثمن شقاوته .

محمد عبده



(مطابع الاخبار)